كيفيَّة

استطلاع الدِّراسات السَّابقة

المؤلَّف

أد. عقيل حسين عقيل

جامعة طرابلس/ كلية الآداب

قسم الخدمة الاجتماعيَّة

2018م

المحتويات

المقدِّمة 4

مفهومُ الاستطلاع: 6

مفهوم الدِّراسات: 10

مفهوم السَّابقة: 16

معطيات استدعاء الدِّراسات السَّابقة 18

معطية التذكّر: 18

معطية التدبُّر: 22

معطية التفكُّر: 27

أهميَّة استطلاع الدِّراسات السَّابقة: 33

شروط استطلاع الدِّراسات السَّابقة: 35

الكيفيَّة العلميَّة لاستطلع الدِّراسات السَّابقة 37

استطلاع الدِّراسات السَّابقة يُصحّح المعلومة: 75

استطلاع الدِّراسات السَّابقة يمكن من المجهول: 78

استطلاعُ الدِّراسات السَّابقة يُفطن الذَّاكرة: 82

استطلاعُ الدِّراسات السَّابقة يُمكِّن من المأمول: 88

الأملُ استطلاعًا: 94

استطلاع الدِّراسات السَّابقة استيعاب معرفة: 102

النظريات والدِّراسات السَّابقة: 104
الدِّراسات السَّابقة والاستطلاع ملاحظةً: 110
علاقة المشاهدة بالملاحظة: 111
استطلاع الدِّراسات السَّابقة مجادلةً: 122
طرق استطلاع الدِّراسات السَّابقة 132
طريقة التقصّي التَّاريخي: 132
الطريقة المسحيَّة: 135
الطريقة التحليليَّة للمضمون 138
صدر للمؤلّف..... 143
المؤلّفات..... 144
المؤلّف في سطور 159

المقدِّمة

مع أنَّ الدِّراسات السَّابقة خطوة من خطوات البحث العلمي فإنَّها عند القيام بدراسة البحوث السَّابقة لا تغفل عن تسخير طرق البحث في تقصِّي المعلومة بالمعلومة.

ومع أنَّ تلك البحوث العلميَّة التي سبق وأن أجريت من قِبل البحَّاث والمتخصصين في ميادين العلوم والمعارف الواسعة قد نُشرت بعد أن أُجيزت من لجان التقييم والمناقشة، فإنَّها لا تفلت من التقييم العلمي ثانيةً من خلال إخضاعها للدراسة لاحقًا من قبل متخصِّصين جدد؛ وهذا لا يعني إخضاع جهود المقيِّمين وما نشر منها للدراسة، بل يعني استطلاع جهود البحَّاث التي بها تمكَّنوا من الوصول إلى نتائج علميَّة، وتوصيات موضوعيَّة ومنطقيَّة؛ وذلك بهدف الاستفادة من تلك الجهود البحثيَّة وكشف علاقاتها بالمستجدات في الزَّمن الحاضر؛ أي: إنَّ الهدف ليس التقييم، بل الهدف الاستطلاع الذي بدوره يخضعها للتفحُّص، ومن ثمَّ فالاستطلاع العلمي قد يضعها في موقف التقييم، وبخاصَّة عندما يُكتشف الخطأ، أو الخلل، والقصور.

استطلاع الدِّراسات السَّابقة يُحصِّن الباحث من الوقوع في التكرار، أو الوقوع في أخطاء قد وقع فيها من سبقه بالبحث في مجال تخصُّصه، كما تزوِّده بتوصيات ومقترحات تفتح أمامه آفاقًا واسعةً تجاه مرامي فروض بحثه ومستهدفاتها.

إنَّ العودة إلى استطلاع الدِّراسات السَّابقة يُنبئ عن اعتراف مهني بأهميَّة الاتصال العلمي والمعرفي، كما أنَّه يوفّر المزيد من مفاتيح البحث المتخصِّصة؛ ولهذا فإنَّ استطلاع الدِّراسات السَّابقة يؤصِّل البحوث اللاحقة، ويُسهِم في اختصار الوقت والجهد، ويذلل مزيدًا من الصِّعاب.

وعليه:

كلَّما تمكَّن الباحث من استطلاع الدِّراسات السَّابقة عرف أهميَّة مشكلة بحثه، وعرف كيف يتفادى بديهيَّات الوقوع في الأخطاء التي في كثيرٍ من الأحيان يقع فيها لو لم يعد إلى الدِّراسات السَّابقة ويستطلعها بموضوعيَّة، هذا إلى جانب الاستفادة الواسعة من الأساتذة المقيِّمين والمشرفين.

استطلاع الدَّراسات السَّابقة يستوجب فنًّا منهجيًّا به يتم التفحُّص الواعي للمعلومة، والتقصّي الدّقيق للفكرة، والتجادل مع المضمون حُجَّة بحجَّة.

يُعين الله البحَّاث والدَّارسين والمتطلّعين إلى كلّ ما من شأنه أنْ يحدث النُّقلة ويحقّق التقدّم قيمًا وفضائل وبناءً وإعمارًا.

أ.د. عقيل حسين عقيل

جامعة طرابلس /كليَّة الآداب

2018م

مفهومُ الاستطلاع:

الاستطلاع تبُّنٌ قَبل الإقدام على الفعل أو العمل أو السُّلوك المستهدف القيام به، أو تنفيذه على أرض الواقع.

إنَّهُ التبيُّن المعرفي الممكّن من الاستيضاح وفكّ الملابسات بهدف اتخاذ قرارات موضوعيَّة تجنّب الوقوع في غير المتوقّع.

إنَّه التبيُّن العلمي للمُستطلَعِ وإظهاره (هو كما هو)؛ ليكون بين أيدي الباحث ميسّرًا، أو بين أيدي النَّاس بلا انحيازات ولا ميول شخصانيَّة.

ومع أنَّ مصطلح الاستطلاع يرتبط بالمستقبل فإنَّه يمتدُّ أملًا إلى الماضي المأمول حتى يتم نيله نتيجة مرضية؛ ولهذا فالآمل لا يقفز على الزَّمن بقدر ما يراه ضرورة لنضج الثِّمار المستهدف جنيُها، فيعمل من أجل سلامة نضجها حتى تستوي رطبًا.

ومن ثمّ، فالأمل يحتوي الزَّمن من أجل بلوغ المأمول ونيله بلا ملل، والآمل لا تضيق نفسه من الزَّمن الذي يجب أن يكون حاضرًا والمأمول لا يفارقه، بل نفسه تضيق إنْ لم يعمل عبر الزَّمن من أجل نيل ما يأمله.

ولأنَّ الأمل يحتوي الزَّمن وكأنَّه مسافة تستوجب العبور؛ فلا يمكن لآملٍ أن يرى الزَّمن عائقًا ولا سالبًا، بل يراه من موجبات تحقيق الأمل ونيله؛ ولذا وجب على الآملين حساب الزَّمن وإدارته وفقًا

للأهداف والأغراض والغايات الكامنة من ورائها؛ ولهذا ينبغي استطلاع الدِّراسات السَّابقة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّ الأمل لا يكون إلَّا في الزَّمن الحاضر، فإنَّ المأمول لا يمكن أنْ يكون فيه، ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى العموم لا يكون إلَّا في الزَّمن المستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى الخصوص فهو في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ومن هنا يمكن أن يكون المأمول في المستقبل، ويمكن أن يكون في الماضي؛ ولهذا فهم يسعون من أجل بلوغه ونيله أينما كان، فعلى سبيل المثال: لو كان المأمول هو الجنّة، فهل الجنة تقع في الزَّمن الحاضر، أم أنَّها في الزَّمن الماضي؟

أقول:

مع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، لكنَّه بالنّسبة إلى آدم؛ يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم العودة إلى تلك الجنّة التي فُقدت في لحظة غفلة.

ولهذا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، لكنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزَّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنَّ الجنَّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أُهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا؛

فهذا شيء مما يحتويه التَّاريخ الذي قيمته أوجبت استطلاع الدِّراسات السَّابقة التي تحمل في طيَّاتها حقائق لا ينبغي أن يغض الباحث نظره عنها.

ومن ثمّ، فلا ينبغي أن يكون التفكُّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما، ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلِّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

فالإنسان الأوَّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ؛ فأخرج به هبوطًا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعًا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه شهوة وإرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه.

وعليه:

فإنَّ الاستطلاع في حاضره لا يكون إلَّا بين الزَّمنين، فهو كما يرتبط بالمستقبل يرتبط بالتمام بالماضي؛ ولهذا فلكلِّ فعل أو عمل أو سلوك يحدث في الزَّمن الحاضر علاقة ارتباط بماضٍ (مؤلم أو سعيد) أو بمستقبلٍ مأمول، أو بهما معًا.

ومن هنا؛ فالاستطلاع مع أنَّه في أذهان العموم يرتبط بالمستقبل فإنَّه في حقيقة أمره يرتبط بالزَّمن كلِّه، أمَّا ارتباطه بالدِّراسات السَّابقة فقد قيِّد بما هو ماضٍ، أي: قيَّدته كلمة (السَّابقة) فأصبح في هذا التوصيف مقتصرًا على السَّابق موضوعيًّا.

ومن ثمَّ فالاستطلاع رغبةٌ معرفيَّة من أجل المزيد معلوماتيًّا، بهدف التبيُّن الممكِّن من الإقدام، أو التجنُّب، أو الانسحاب، مع أخذ الحيطة والحذر، أو إعداد العُدَّة.

إذن: الاستطلاع انتباه استكشافي يمكِّن من المعرفة الواعية للظاهر والكامن، سواء أكان عادةً، أم فكرًا، أم عملًا، أم فعلًا، أم سُلوكًا بغرض كشف اتجاهات المستطلَع ومقاصده وحيويَّته.

فالاستطلاع تحقيق معرفي أو تحقيق علمي مقنَّنٌ ومصنَّفٌ، يجرى في ميادين الفكر، والثَّقافة، والطَّبيعة والعلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية؛ لأجل معرفة حقيقة الأمر التي استفزَّت الباحثين موضوعيًّا.

ولهذا فللاستطلاع وسائله المختلفة؛ فمنها: المقابلات، والمشاهدات، والملاحظات، والاستبيانات التي تُمكِّنُ من توافر المعلومات من مصادرها وإخضاعها للتَّفحُّص والتحليل الممكِّن من بلوغ النتائج القابلة للتفسير العلمي.

والاستطلاع الموضوعي يستوجب وعي المستطلع أو الباحث بالموضوع المستطلع من أجله، وإلَّا لن يكون الأمر ميسَّرًا لتحديد

المشكلة، أو الموقف، أو الاتجاه، أو الظَّاهرة، أو المشهد قيد الاستطلاع والتقصِّي، الذي يستدعي استطلاع ما عند الآخرين، أو استطلاع أماكنهم، أو اتجاهاتهم، أو آرائهم، أو معتقداتهم، وأفكارهم وثقافاتهم وظروفهم، وقدراتهم، واستعداداتهم، وإمكاناتهم، أو استطلاع المؤشرات البيئية والطبيعيَّة التي لفتت آراء البحاث في زمن بحوثهم السَّابقة والتي تبدوا للظّهور في زمن إجراء البحث والدِّراسة.

مفهوم الدِّراسات:

الدِّراسات جمع دراسة، وهي ما تمَّ إجراؤه بحثًا علميًّا سواء أكان نظريًّا، أم ميدانيًّا، أم معمليًّا أم مختبريًّا.

فالدِّراسة تفحُّص وتدقيق علمي في المعلومات المستمدَّة من مصادرها، وميادينها الاجتماعيَّة، والإنسانيَّة، والطبيعيَّة.

ولذا فإنَّ الدِّراسة العلميَّة تُمكِّنُ الباحث من الاطلاع على تلك الجهود التي سبق وأن أنجزت بحثًا، وقد أجيزت من قِبل لجان الإشراف والمناقشة، أو أنَّها نشرت معياريًّا؛ ولأنَّها ذات علاقة بموضوع البحث وفقًا للتخصُّص والاهتمام يتمُّ البحث عنها، والعودة إليها، والاستئناس بها فيما يخصّ المشكلة قيد البحث.

فتلك الدِّراسات ذات العلاقة في زمن إجرائها توصف بأنَّها بحوثٌ، ولكن بعد أن أُجيزت من قِبل لجان المناقشة العلميَّة ونُشرت تُصبح مادَّة علميَّة ومعرفيَّة متوفِّرة بين أيدي البحاث، وبإمكانهم

الاطلاع عليها، ومراجعتها، والاستفادة من معلوماتها ونتائجها وتوصيات البحَّاث وفقًا لكلِّ تخصُّص.

ولأنَّها توصف بالدِّراسة، فهي مستوفاة الشُّروط، وأصبحت قابلة للاستطلاع العلمي الممكِّن من كشف العلاقة الموضوعيَّة بين مشكلة البحث التي ما تزال مشكلة بين يدي الباحث، وتلك الإشكالية التي تمَّ بحثها من قِبل باحث سابق، استطاع من خلالها أن يصوغ فرضيات أو تساؤلات علميَّة، ثمَّ تمكَّن من تحقيق أهداف بحثه التي أوصلته إلى نتائج وتوصيات ذات أهميَّة وتفتح آفاقًا واسعة وجديدة أمام بحاث لاحقين.

وعليه: يحتوي مفهوم الدِّراسة مضمون التَّدارس من خلال تداول الباحث للمعلومات والنتائج التي توصَّل إليها مَنْ سبقه بالبحث، وإخضاعها للنقاش والتعليل والتفسير بما يمكِّن من قراءة ذلك المشهد أو تلك الظَّاهرة سواءً أكان المشهد أو الظَّاهرة سياسيَّة أم اجتماعيَّة، أم اقتصاديَّة، أم طبيعيَّة، ولكن من زاوية العلاقة بمشكلة البحث الحاليَّة.

فالتدارس يعني إخضاع تلك البحوث التي أجريت واستكملت شروطها، ونشرت، أو أُجيزت من قبل لجان التقييم والمناقشة إلى القراءة الجادة والمتفحّصة بغرض الاستفادة العلميَّة التي تجنِّب الباحث من الوقوع في الهفوات، وتمدُّه بنتائج وتوصيات ترشده

إلى ما ينبغي، وتيسر أمامه السُّبل الجادة في اتجاه ما يبحث عنه، وهو ما يأمله ولم يكن بين يديه بعد.

إذن: الدِّراسة جهود تبذل وفقًا لفروض أو تساؤلات وأهداف محدَّدة قابلة للإنجاز بغرض تأصيل المعرفة المصنَّفة، وتجنُّب التكرار، والاستفادة بجهود الذين كان لهم السَّبق في كشف المجهول، وكسر قيوده، ومن ثمَّ تيسيره معرفة بين أيدي الباحثين.

وتوصف الدِّراسة بأنَّها إعادة قراءة لذلك المنجز علميًّا بغاية الاستفادة، وتجاوز الصِّعاب التي وقع فيها من سبق له البحث في مضمار المعرفة المصنَّفة، وهي تمعُّن فيما أنجز وكتب ونشر مع تقييم موضوعي لا يستند إلَّا على خطوات البحث العلمي.

وعلينا أنْ نميِّز بين البحث العلمي والدِّراسة، فكثير من البحاث يخلطون بين هذا وذاك؛ فالدِّراسة جهود تُبذل على واقع معروف لإظهاره وافيًا بين أيدي من يتعلَّق الأمر بهم، وهي واسعة الامتداد في المجالات المتعدِّدة للحالة أو الظَّاهرة أو العميل، وقد تكون الدِّراسة استطلاعية للتعرُّف على ما يشير أو يدلُّ على وجود مواقف موجبة، أو إشكاليات سالبة، أو مواضيع ذات أهمية في دائرة الممكن، وقد تكون الدِّراسة تتبُّعية وفقًا لخطة مُعدَّة لإنجاز أهداف من ورائها غايات إصلاحية أو علاجية بعد دراستها دراسة وافية.

ومع أنَّ الدِّراسة واسعة المعالم وقد تُسهم في عمليات الإصلاح الاجتماعي والنفسي والاقتصادي إلَّا أنَّها في مُعظم الأحيان

لا تُضيف الجديد، فهي تُمكِّن من التعرُّف على ما هو كائن، وقد تدفع إلى إصلاحه، أو إصلاح بعض منه (بعض ممَّا فسد أو انحرف).

وتحتوي الدِّراسة الموضوعية خمس عمليات مهنية: (عملية جمع المعلومات، وعملية تحليل المعلومات، وعملية تشخيص الحالة، وعملية العلاج، وعملية التقويم).

وتتَّصف الدِّراسة بالشّمولية من حيث الموضوع، والزَّمان والمبحوثين، فمن حيث الموضوع: تمتدُّ لتشمل المجال الاجتماعي والاقتصادي والسِّياسي والنَّفسي والذَّوقي والثَّقافي، ومن حيث الزَّمن: فهي لا تغفل عن الماضي وأهميته، والحاضر وواقعه، والمستقبل وما يُستهدف من أجله. ومن حيث المبحوثين: تمتدُّ من حالة الفرد إلى حالة الجماعة ثمَّ حالة المجتمع؛ ولذا فإنَّ الدِّراسة تهتم بمعرفة الكلّ وأثره على الجزء والمتجزئ، وهذا ما ليس بالبحث.

أمَّا البحث فإنَّه يتطلّب فروضًا أو تساؤلات وإشكالات تستوجب الحلّ وإلَّا تفاقمت، وأثَّرت في دائرة الممكن المتوقّع، وغير المتوقّع، ولهذا فالبحث لا يقوم به إلَّا متخصص، ومن هم على مهارة مهنية وفنّية، أمَّا الدِّراسة فقد يجريها المتخصّص وغير المتخصّص، والبحث يركز على متغيّرات البحث، والدِّراسة تتوسَّع في غير ذلك فهي تميل للعموم، أمَّا البحث فيتمركز على التخصُّص.

فالبحث يستدعي متخصّصين يقومون بعمليات الإشراف وتوجيه البحَّاث وإرشادهم إلى ما يمكِّنهم من استيعاب منهجيات البحث ويمكِّنهم من استخدام وسائله، أمَّا الدِّراسة فتأخذ اتجاهين:

الاتجاه الأوَّل: الدّراسة هي ما أشارت إليه خطوات البحث العلمي بعنوان: (استطلاع الدِّراسات السَّابقة) أي: إنَّ الدِّراسة هنا تعني ذلك البحث العلمي الذي قُيم وأُجيز ونُشر ووثِّق على التمام، فأصبح جاهزًا للاستطلاع من قِبل الدَّارسين لما يحمله من فكرة ومضمون ومحتوى.

الاتجاه الثاني: الدِّراسة هي تلك الجهود التي يجريها ذوو الاختصاص أو الاهتمام، أي: التي يقوم بها المتخصص وغير المتخصص، وهي لا تتطلَّب جهدًا مقنَّنًا كما هو جهد الباحث المتخصّص، ومع أنَّها تتطلَّب معرفة، فإنَّها لا تقيّد بشهادة أو مؤهّل علمي.

أمَّا البحث فجهد يُبذل للتعرُّف على ما لم يُعرف بالتَّمام مسبقًا، وهو تقصٍ دقيق، وتتبُّع واعٍ وفق خطّة مؤسَّسة على أهداف موضوعيَّة وفروض في دائرة الممكن؛ ولأنَّ الدِّراسة هي معرفة ما هو كائن، فالبحث هو معرفة ما سيكون أو ما ينبغي أن يكون.

إنَّه التتبُّع الدَّقيق والتقصِّي الواعي للعلاقات ذات الأثر السَّالب، أو الأثر الموجب، وكشف ما ستضيفه جديدًا على الحياة الاجتماعية والإنسانية.

ومن ثمَّ تصاغ له الفروض العلميَّة التي تستوعب الجزء المتعرَّف عليه، وتتطلَّع إلى الجزء المفقود حتى تكتمل المعرفة، ويتمُّ بلوغ الحقيقة المتعلِّقة بموضوع البحث ممَّا يجعل بلوغها يؤدِّي إلى الإضافة الجديدة التي لم يسبق لها وإن وجدت، وقد تكون النتائج المتوصَّل إليها بالبحث العلمي إضافة جديد بكاملها وليس إضافة جزء مفقود لجزء معروف، أو متوفّر، وفي مثل هذه الحالات تصاغ التساؤلات بدلًا من صياغة الفروض.

ومن هنا فالبحث يؤدِّي إلى إضافة جديدة لمعرفة سابقة، وقد تكون النتائج المتوصَّل إليها تصحيحًا لمعلومات سابقة، أو إبطال قاعدة من القواعد التي كان يُعمل بها، فالبحث لأجل التعرُّف على الجديد، وإضافته لدائرة المعارف العلميَّة.

ولذا فإنَّ الدِّراسة تجرى على الشيء الموجود، والبحث جهود تبذل من أجل معرفة الشّيء الغائب.

إذن: تجرى الدِّراسات لأجل التعرُّف على ما هو كائن، وتصحيح انحرافاته، مع إعطاء مؤشِّرات لِما ينبغي إن يخضع للبحث الموضوعي، وتجرى البحوث لأجل الجديد، وتتطلَّع إلى كلِّ نافع ومفيد.

وعليه:

لا ينبغي أنْ نطلق على رسائل الماجستير والدّكتوراه مسمَّى الدِّراسة، بل فقط مسمَّى البحث الذي لا يقوم به إلا مُتمكِّن ومتضلِّع في طرق البحث، ومستوعبٌ لمناهجه وأساليبه العلميَّة.

وعليه: فالفارق بين البحث والدِّراسة هو أنَّ البحث مسعى الباحثين عن الغائب من المعرفة، أمَّا الدِّراسة فهي الجهود التي تبذل من أجل معرفة المنجز بحثًا.

مفهوم السَّابقة:

مع أنَّ مفهوم كلمة السَّابقة يرتبط بالماضي زمنًا فإنَّه لا يقتصر عليه، بل يتعدَّاه إلى مفهوم السَّبق الذي لا يكون متحقِّقًا إلَّا بجهود الباحثين الجَّادِّين، ومن هنا يرتبط مفهوم كلمة السَّابقة بالدِّراسات وليس بالماضي المجرَّد، ومع أنَّ الدِّراسات المراد استطلاعها قد أُجريت في الزَّمن الماضي، فإنَّ مواضيعها لا تنفصل عمَّا يجري في الحاضر؛ ولهذا فالعلاقة لا تنفصل بين دراسات أجريت، وأخرى تُجرى.

ولأنَّ لكلِّ مشكلة جذورها فلا جذور لمشكلة إلَّا في الماضي، ومن هنا فلا ينبغي الإغفال عمَّا جرى من بحوث ودراسات في الماضي إذا أردنا تأصيلًا أو استمدادًا لرؤيةٍ، أو أردنا اتعاظًا، أو حُسن تدبُّر، أو استطلاعٍ إلى مأمولٍ ينبغي أن يتمَّ نيله.

ومن ثمَّ فالسَّبق في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كما يولد في الماضي، يولد في الحاضر، ويولد في المستقبل؛ فهو في الماضي سبق

زمني وموضوعي (إبداع أو تعرُّف)، وفي الحاضر إضافة واكتشاف أو اتعاظٌ واعتبارٌ، أمَّا في المستقبل فسيكون بلوغ غاية، ونيل مأمول.

ولأنَّ وراء كلِّ مأمول مأمولات لاحقة فالإضافات العلميَّة ستكون دائمًا في حالة اتصال من حيث متابعة السَّابق، وملاحقة الجديد؛ ولهذا فالنظرة العلميَّة إلى السَّابق لم تكن نظرة إلى أموات، بل نظرة تفحُّص وتمعُّن للشواهد الحيَّة التي شهدت على الماضين وما زالت شاهدة بين أيدي البحاث وثائقًا، أو آثرًا من آثار الإعمار والبناء الحضاري والثقافي في تلك الأزْمُن السَّابقة.

ومع أنَّه من الأهميَّة ألَّا يُغفل عن تلك الجهود، وتلك الإبداعات فإنَّ ذلك لا يعني القصور عليها، بل يدلُّ على ضرورة استمداد القوَّة، سواء بأخذ شواهدِ الاتعاظ منها، أو تجنُّب ما وقعت فيه من أخطاء، أو التوقّف على ما أوصت به، ومن ثمَّ تبنّيه كونه على علاقة بما يجري في زمن اللاحقين.

ومع أنَّ لكلمة العلم مفهومًا مستقلًّا كغيرها من الكلمات فإنَّ مفهوم هذه الكلمة وحده يتجسَّد في كلِّ الكلمات، وبمختلف مفاهيمها.

ومع أنَّ الزَّمن متصلٌ فإنَّ الأحداث والمواقيت تفصله؛ ولأنَّه متصل والأحداث تولد فيه أو تنشأ، فهي لا تولد ولا تنشأ هكذا ضربة عشواء، بل وراء كلّ علَّة معلول وسبب ينشأن كما تنشأ البذرة، وينميان كما تنمو.

معطيات استدعاء الدِّراسات السَّابقة

معطية التذكّر:

يعد التذكّر الفكري عملية من عمليات الفعل العقلي المتعلّق بالمراجعات والاستقراءات بغاية الاستنباط والاستمداد الممكِّن من تدبّر الحاضر، وصُنع المأمول، والتفكير فيما يحفّز على بلوغه ونيله.

ويمثل الماضي خزينًا معرفيًّا متعدّدا ومتنوّعًا، بما يستثير العقل ويحفّزه على الانتباه والأخذ بما يجب اتعاظًا، فهو حافلٌ بالكثير من التجارب المختلفة التي كان لها حضور واضح ومؤثّر سواء أكان ذلك على مستوى السّلب أم الإيجاب؛ ولهذا فإنَّ الوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي، والتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطّلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكلٍ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضية التي كانت السّبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الماضي تفكيرٌ فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل

البحث الدّائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولًا مهمّة إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في كثير القضايا متحقّقًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ ولذا تكون الصُّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة.

ويدخل التفكير الماضي حقل التراث، لكن ليس من باب الجمود كأيّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح، فالإنسان يمرُّ بظروفٍ تكاد تتشابه كثيرًا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة؛ ممّا يطرح هذا الاختلاف وجود آراء مختلفة، وقد شكَّلت هذه النهايات ممرّ تجري فيه الأمور بعد ذلك إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلَّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرًا حتى في القضية الواحدة؛ إذ تحكمه الكثير من الظّروف التي تتنوّع فلا تقف عند حدٍّ معينٍ؛ فيكون الارتماء ممثّلًا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلَّا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها؛ ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول، فالماضي حمل الكثير من

الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيٍّ صعيد، فلم يكن هناك حلٌّ واحدٌ لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

ويكتنف تذكُّر الماضي واستدعائه الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغ الماضي من طروحات؛ ولهذا نجد يومًا بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي، وقد تكون متناقضة لكن هذا يدلِّل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشَّاخصة التي تكون فيما بعد دروسًا يستفيد منها من يبحث عن حلٍّ لما يمرّ به الإنسان.

ويطرح التَّاريخ مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السّير في هذا الرواق منكفيًا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة؛ كونها تمثّل امتدادًا مطلوبًا، والتَّاريخ فيه من السِّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلِّ زمان ومكان، فمقولة: (التَّاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة، لكنّها كما نعتقد أنَّها لا تمثّل تشكيلًا عامًا في هذا النسق الإنساني، فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التَّاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التام؛ لأنَّ هذا الأمر يكون من الصُّعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم بشكلٍ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيًّا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف حاضرًا فيه؛ كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة؛ ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر كي تكون النهاية ملبّية للخوف الأوَّل الذي كان محفّزًا بدرجة جعل من آليات البحث عن حلٍّ خاضعة لهذا الخوف بشكل كبير؛ ولهذا علينا أن نفكّر في المجهول

بغاية كشف حقيقته ومعرفة علله وأسبابه وإضافته إلى معارفنا التي تسهم في إشباع حاجاتنا المتطوّرة[1].

معطية التدبُّر:

التدبّر هو إعمال العقل وانشغاله تفكيرًا فيما يجب تجاه ما نفكّر فيه، واتجاه من نفكّر من أجلهم، ما يجعل التخطيط تدبّرًا عن تدبّر، أي: تدبّرًا وفقًا لدائرة الممكن (تهيؤًا، وعدةً، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا) أمّا كونه عن تدبّر فالأمر هنا يعود لما وصل إليه العقل البشري من تفكير حتى أوجد طريقة تمكّن من الحلّ، ومن هنا صاغ لها خطّة لإنجازها.

فالتدبّر حُسن إدارة وجودة عمل، به تُرْسم السياسات والخطط وتُتّخذ التدابير الممكّنة من إيجاد معالجات لأيّ طارئ؛ فالتدبّر دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكّنهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُّقلة سياسةً واقتصادًا وعلمًا ومعرفةً، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقًا للفرضيات التي تأسّست عليها بعد استطلاع لما سبق من جهودٍ بحثيّةٍ ومعرفيَّةٍ؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاءً يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل في الزّمن الحاضر دون أن تترك أثرًا سلبيًّا.

[1] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 96 . 100.

ويتّسع التدبّر العقلي والفكري ارتقاءً ليكون حضوره ملبّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة، إلّا أنَّه لا يكون حلًّا نهائيًّا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولًا دائمةً، لكنَّها في وقتها إن كانت ارتقاءً فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيًا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيًّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث؛ وهو بهذا يسير نحو إيجاد حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضية ممّا يكون مستقبلها حاصلًا، ومنتميًا لهذه الافتراضات.

ففي الزَّمن الآني يحدث الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثِّلًا لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلة.

فالتدبُّر تفكير يُمكِّن من حلّ المفاجآت التي يمكن أن تحصل؛ ولهذا لا يكون الحلّ نهائيًّا، بل وقتيًّا من أجل تجاوز المرحلة المهمّة، ومن الشّواهد التي رأينا فيها التدبّر العقلي مثالًا حاصلًا بالكيفية الآنية ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السُّلطات التشيليّة إلّا أن بحثت عن حلّ سريع يكون فيه النّجاة لهؤلاء العمّال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضرًا بدرجة كبيرة، ممّا استوجب ضرورة لحسن التدبّر، فأدوات النجاة وطرقها كان يرافقها الخوف ممّا أفضى إلى أن يكون النجاح

حليف عملية الإنقاذ، واستعملت في عملية الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم: (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم، وخضعت هذه الكبسولة للتجريب؛ إذ عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليات إنقاذ العمال، فما كان من الخوف إلَّا أن يكون حاضرًا في جميع تفاصيل مهمة الإنقاذ، فالبداية تدبّرًا كانت باحثة عن كلِّ الأساليب التي تجعل من العمَّال يبقون على قيد الحياة سالمين، كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمَّا المهمّة الثَّانية: فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم، إلى الكبسولة التي تقلّهم إلى سطح الأرض، فالتدبّر في حاضره كان في كلّ شيء يسهم في الإنقاذ، والكبسولة حيطة وحذرًا لم تكن واحدة، بل كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفِّرة فيها تدبّرًا كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلِّ سلامة، ولم يكن الخوف والتدبّر قابعًا تحت الأرض فقط، بل كان حاضرًا عند سطح الأرض وتمثل ذلك في توفير كلّ المستلزمات الصحيّة التي تحافظ على صحة العمال وسلامتهم بما فيها النظّارة الشمسية الخاصّة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

ويُسهم الحلّ الآني تدبّرًا في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلٍ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من التدبّر والمتناوبات المختلفة التي تشير بشكلٍ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز

الافتراضي، وهذا يبعث في الرؤى العامّة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيات أخذ الحيطة والحذر من أجل سلامة المتدبّر من أجله.

ويكون التدبّر المتعاقب في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمرارية حقيقية تكون رافدة للعملية المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل كونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الإيضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عملية نجد فيها تشاكل واضح ينضح بكلّ السياقات التي يكون حضورها فاعلًا ومؤثّرًا.

وعليه: تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها؛ كي تشغل حيّزًا واضحًا في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمَّا حدود هذه المساحة فهي مفتوحة كونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث؛ لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون معالجتها تفكّرًا وتدبّرًا غير منضوية تحت أيّ إدراج، وبغضّ النّظر عن الوسائل التي تُستخدم، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها التي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب.

إذن: يوجد التصاق بين التدبّر الإنساني والزّمن الحاضر، أي: لا تدبّر إلّا حاضرًا، وهذا الأمر جعل من يتدبّر يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنية التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية؛ لأنّها لم تنتمي إلى دائرة الثبات التحقّقي، فهي تزاول نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع؛ لأنَّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول في زمنها الحاضر وفقًا لما هو ممكن.

وهنا يباشر التدبّر وجوده من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المشكل حاصلًا بكيفية متوقّعة وغير متوقّعة، فتنبري الحلول المستدعاة تدبّرًا بتقنيات مختلفة؛ إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبٍّ للواقع، ويكون الزّمن مفتوحًا ضمن مدى قد يقصر وقد يطول بحسب الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلِّ المنشود أملًا.

والإنسان في حاضره يبحث عن سبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه تدبّرًا، ويكتنف هذا البحث تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ ويكون حسن التدبُّر موجّها للعقل ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير؛ كونه حاصلًا وحدوده يمكن تبيانها، ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصد والتحليل وللتمثّل، إلَّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضرًا في إيجاد

افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفية التي يكون فيها التسابق حاصلًا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيًا للمراحل المرادة، فالانزواءات غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب؛ ذلك أنَّ التدبّر يمرّ دائمًا بحالة من الحضور المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو2.

معطية التفكُّر:

التفكُّر لا يكون إلَّا في قضية أو موضوع أو مشكلة محيّرة، وهو من أعمال العقل وعمليات الذّهن، وهو يُمكّن من الإدراك (ملاحقة المعلومة أو الفكرة) وإدراكها أينما كانت بحثًا أو تفكيرًا يخلّص من الحيرة المقلقة؛ فالتفكّر كونه يمكّن من إدراك الشيء قبل فوات أوانه، يعدّ حيوية العقل ونشاطه توجيهًا إراديًّا، وهو لا يقتصر على التفكّر في المتوفّر من المعلومات أو المتوفّر بذاته للمشاهدة، بل يمتدّ في دائرة الممكن إلى معرفة المزيد المضاف والمبدع.

ولأنَّه التفكّر؛ فهو يلاحق كلّ ما يقع في الزّمن، وهدفه معرفة طبيعة المتعرّف عليه، والاستفادة منه حاضرًا ومستقبلًا، أمَّا غايته فهي: التجويد وإحداث النُّقلة وصُنع المستقبل، ونيل المأمول، أو الفوز به.

---

[2] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 127 . 131.

ولهذا فالتفكّر تشغيل العقل وتوجيهه تفكيرًا فيما يجب أن يكون غايةً وأملًا، فإنّ كان المأمول مرتبطًا بسابقٍ فتشغيل العقل تفكّرًا يقود إليه، مثل: أبونا آدم عليه السَّلام الذي في زمانه أصبح يفكّر في العودة إلى تلك الجنّة التي افتقدها بعد أن أهبط به والأرض إلى الحياة الدُّنيا، أمَّا بالنسبة إلى بنيه من بعده فالتفكّر يربطهم بالمستقبل المأمول؛ ولأجل ذلك وجب الاتعاظ حتى لا يتمّ الإغفال عن التفكّر في المستقبل: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}3، فإنْ تذكر بنو آدم تلك الآلام التي حدثت بعلل التفكير اتعظوا، ومن ثمّ ليس لهم بدّ إلَّا التفكّر فيما يجب أن يصنع لهم مأمولًا ومستقبلًا عظيمًا، أمَّا التفكّر في المجرّد فدائمًا ينقل المفكّرين إلى ما يمكّنهم من المعرفة المضافة كما يمكّنهم من إحداث النُّقلة.

ويرتبط التفكّر بالمستقبل المأمول وهو يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهمية كبرى في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجية التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع؛ وبذلك يكون التفكّر عنصرًا مهمًّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدمًا نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي

---

[3] الأعراف 176.

تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندًّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيُّ انكفاء، بل تكون الأمور عامَّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعادًا مختلفة ومهمة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة؛ كي يكون الاتساع المرافق ملبّيًا للإدراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شمولية مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموض معيّن يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرؤيا المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات، وحتى التداعيات التي تخلف انفراجًا وإن كان وقتيًّا إلَّا أنَّه قد يكون سببًا في حلِّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنَّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويًّا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانًا بين الحضور الحاصل، إلّا أنَّ مكمنها قد لا يبدو واضحًا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمة ألا وهي:

التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة؛ إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجًا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرًا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبلية المطلوبة؛ فتكون الآليّات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الحذر في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبّيًا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه أن يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاءً.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب؛ كي تكون الصورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل، فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنًا مع التفكّر في التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، ولأنَّ النّهاية مفتوحة؛ سيبقى الحذر مفتوحًا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنّهاية المفتوحة تكون حافزًا على خلق استمرارية في البحث تتّجه دائمًا نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنَّها تمثّل النّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالف للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على

استنهاض مستمر، وبحث مستمر والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير؛ لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجها محمودة أبدًا، وفي المقابل تفطين الذاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزّمن ماضيًا وحاضرًا يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلًا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق؛ فهو من باب أنَّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرًا بالاتجاه الصحيح دون أن تكون له قاعدة يتكئ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظرية أم عملية؛ فتوجه الحذر يكون متماشيًّا مع هذه الامتدادات؛ كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

وعليه: يكون التفكّر واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلَّا أنَّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب؛ لأنَّ هذه الصّفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادًا مهمّة تسهم بفاعلية كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق؛ لأنَّ (السّابق) متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك

الافتراقات التي تخلق بناءً مغايرًا مبنيًّا على تشعبات استبطانية وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل، أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألاّ يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح النَّاس جميعًا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر، فالمخاوف بسمتها الإيجابية المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمًّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة، فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون، فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًّا يمنح الإنسان وعيًا مستمرًا أيضًا؛ ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق، فيكون الخزين العام منساقًا نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكرية المطروحة، فيكون الاغتناء

الفكري قد وجد له تمويلًا مستمرًا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل4.

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلَّا بالتفكُّر؛ ولهذا فعلينا به تخطيطًا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومن معرفة المعجز معجزًا، ومن معرفة الممكن ممكنًا حتى وإن كان غير متوقّع؛ ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

ولأنَّ الحياة من أجل المستقبل؛ فنحن بنو آدم نتعلَّم، ونبحث عن فرص عمل، ونتزوّج، ونصادق من يصادقنا، وعندما نتعرّض لسوء التكيُّف قد نُطلِّق عند الضّرورة، وعندما تقوى علاقاتنا نُشرّع، ونسنُّ القوانين والنُّظم، ونحدّد الأهداف، ونرسم الخطط، ونتطلّع بأمل إلى المستقبل القريب والبعيد؛ ولهذا نصوم ونصلّي من أجل نيل المستقبل جنّة.

أهميَّة استطلاع الدِّراسات السَّابقة:

الأهميَّة: تقدير معنوي للظّرف، والحالة، والموضوع قيد الاهتمام، أمَّا أهميَّة الدِّراسات السَّابقة فتستمد من علاقتها مع ما يجري موضوعيًّا في الزَّمن الآن، والتي تتمركز على الآتي:

[4] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 . 135.

. تمدُّ الباحث بمزيدٍ من المعلومات والمعارف المؤيِّدة لما يتناوله من إجراءات بحثيَّة.

. تساعد الباحث على الخروج من حيرته العلميَّة وضبط خطواته البحثيَّة وتفسير نتائج بحثه.

. تفتح آفاقًا واسعةً أمام الباحث في صياغة مشكلة بحثه.

. تُمكِّن الباحث من التواصل مع الخفايا المعلوماتيَّة موضوعيًّا.

. تلفت الباحث إلى ما ينبغي الاهتمام به، فتلفته إلى ما غفل عنه البحاث السَّابقين، وهو ذو أهميَّة لما يَقدِم عليه من بحث علمي.

. تجنِّب الباحث كثيرًا من الأخطاء التي وقع فيها بعض من سبقه في مجال تخصّصه.

. تيسّر للباحث سُبل المعرفة الواسعة التي تمكّنه من الوقوف على الحقائق وكأنَّه شاهد عيان؛ وبخاصّة تيسِّر له تلك الحقائق التي لفتت أنظار من سبقه من الباحثين ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من معالجتها أو إصلاحها.

. تمدّ الباحث بخلفيَّة نظريَّة، تسنده تقنينًا، وتمدّه بالحُجَّة المعياريَّة.

. الدِّراسات السَّابقة تؤصِّل مشكلة البحث اللاحقة، وتظهر الباحث على ما فاته من جهد في مجال تخصّصه.

. تختصر للباحث الجهد والوقت، وتوفّر له شيئًا من الإمكانات، التي لو لم تكن الدِّراسات السَّابقة لكانت أضعاف مضاعفة.

. تمهد نتائج الدِّراسات السَّابقة للباحث قاعدة بحثيَّة منضبطة كما تيسِّر له الصيغ الممكِّنة من صياغة فروض بحثه أو تساؤلاته.

. تظهر للباحث أثر المتغيرات في البيئات المختلفة.

. تُجنب الباحث الوقوع في تكرار أيِّ بحث من البحوث التي سبق وأن دُرست.

. تُمكِّن الباحث من صياغة فروض بحثه أو تساؤلاته من خلال اطلاعه على فروض وتساؤلات بحوث الذين سبقوه في مضمار البحث العلمي.

– تُمكِّن الباحث من تطوير الجوانب التي لم تنل حقَّها من جهود البحَّاث السَّابقين.

. تمدُّ الباحث بمزيدٍ من المصادر والمراجع العلميَّة.

شروط استطلاع الدِّراسات السَّابقة:

. أنْ تكون بشكلٍ عام ذات علاقة واضحة مع مشكلة البحث قيد الدّراسة.

. أنْ تكون ذات علاقة بمتغيرات البحث الرَّئيسة والمتغيِّرات المتفرّعة منها.

. مراعاة الأمانة العلميَّة في اختصار وصوغ خطوات تلك الدِّراسات التي شكَّلت لها هيكليّات خاصَّة.

. تنظيم الدِّراسات السَّابقة وضبط وفقًا للتسلسل التاريخي الذي نشرت فيه، فترتَّب تصاعديًّا من الأقدم إلى الأحدث، أو من الأحدث إلى الأقدم.

. أن تستمد الدِّراسات السَّابقة من مصادرها الأوَّلية، وليس من المصادر الثَّانوية.

. أن تكون الدِّراسات مجازة علميًّا من لجان التقييم، وقد نشرت في الدّوريات والمجلات المحكمة.

. أن يكون عرض الدِّراسات السَّابقة مختصرًا، بمهنيّةٍ تُظهر أهميَّة الدِّراسة موضوعيًّا، وتبعدها عن أساليب العرض الإنشائي؛ فالباحث لا يطالب إلَّا بما يتعلَّق بمشكلة بحثه من متغيرات رئيسة أو متغيرات ذات أهميَّة بالرّغم من تفرعها؛ ولهذا فلا داعي للتفاصيل، أي: ينبغي على الباحث أن يطلع على تفاصيل الدِّراسات ذات العلاقة من أجل مزيدٍ من التبيُّن، ولكن لا ينبغي له عرض ما اطَّلع عليه من تفاصيل.

. ألَّا يتمّ التسليم بنتائج الدِّراسات السَّابقة تسليمًا قاطعًا فالكمال دائمًا لله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[5]؛ ومن ثمَّ فكلّ شيء يخضع للتقييم العلمي موضوعيًّا.

[5] الإسراء 85.

الكيفيَّة العلميَّة

لاستطلاع الدِّراسات السَّابقة

الدِّراسات السَّابقة وفقًا لما تمَّ تبيانه هي تلك البحوث التي أنجزت في ميادين البحث العلمي، وقد أجيزت من لجان المناقشة رسميًّا، سواء أكانت في مراكز البحوث، أم الجامعات والأكاديميات العلميَّة، أم التي أجيزت بعد مناقشة في الندوات والمؤتمرات العلميَّة المتخصّصة.

وقد يتساءل البعض:

لماذا استطلاع الدِّراسات السَّابقة؟

أقول:

لأنَّها تحتوي على السَّابق: والسَّابق هو كلّ قول، أو فعل، أو عمل، أو سلوك متَّصل ومستمر بشيءٍ من نوعه (من الماضي إلى الحاضر)؛ ذلك لأنَّ الزَّمن الحاضر يحتوي على كل الماضي بالفعل، ويمتد إلى المستقبل بالقوَّة، فلو لم يكن هناك ماضٍ ما كان هناك حاضرٌ ولن يكون هناك مستقبل، ولذا فالحاضر لا يكون إلَّا نتيجة تراكم الزَّمن الماضي كوحدة ثابتة بالفعل المتحرّك الذي كان حاضرًا.

وعليه: ينبغي أن ينطلق التحليل والتفسير العلمي موضوعيًّا من ماضٍ إلى حاضرٍ في اتجاه المستقبل بالقوَّة؛ ولأجل ذلك تتكوّن الأفكار الحاضرة بقوَّة الماضي الذي يمدُّها بقوَّة التطلّع للمستقبل الأفضل والأجود.

ومن ثمَّ يحدث التغيُّر والتقدُّم والتطوُّر باحتواء الزَّمن الحاضر على الزَّمن الماضي بما له وما عليه كاحتواء الجسم على وزنه، واحتواء العمر على أيَّامه، والمسافة المقطوعة على أمتارها المتكوّنة منها.

وإذا لم يتم التعرّف على السَّابق واحتوائه، لا يجد اللاحق مكانًا له بين الذين قد سبقوه ليُصبح مصدرًا، أو مرجعًا للباحثين الآتين من بعده؛ ولذلك لا ينبغي أن ينعزل التحليل الحاضر عن التحليل الذي سبقه حتى وإن كان بينهما اختلاف في طرق التحليل وأساليبه، وهذا لا يعنى أن يكون بينهم بالضرورة تماثل أو اتفاق.

إنَّ الاحتواء على السَّابق يؤصِّلُ المواضيع، ويجعل بينها صلة، تُمكِّن الحاضرين واللاحقين من مراجعتها، والتعرُّف على أسرارها وخفاياها، والأخذ بميزها، والابتعاد عن عيوبها، ويتمُّ استطلاع الدِّراسات السَّابقة عرضًا مختصرًا وفقًا للآتي:

. منهاجياتها.

. القضايا العلميَّة التي أثارتها في الميدان العلمي.

. مقارنتها بما يجريه الباحث من بحث أو بحوث.

. علاقة النتائج المتوصَّل إليها في الدِّراسات السَّابقة بفروض الباحث أو تساؤلاته.

. الجديد الذي أضافته كلّ دراسة.

. ما أثارته من تساؤلات جديدة في ذهن الباحث؛ لأجل أن يتفادى أو يبحث فيما يُفيد.

. علاقة الدِّراسات السَّابقة بالنظريات والقوانين وعلاقتها بصناعة المستقبل.

وإذا أراد الباحث أن يعرف أهمية الدِّراسات السَّابقة فعليه بمحاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1 . هل فصول الدِّراسات السَّابقة كانت متوازنة في دراسة متغيِّرات مشكلة البحث؟ أم أنَّها أولت اهتمامًا ببعض المتغيرات الرَّئيسة، وغفلت عن البعض الآخر، وهل كان لذلك أثرٌ على النتائج التي وصلت إليها الدِّراسات السَّابقة؟

أيَّة: إجابة من قِبل الباحث عن هذا السؤال المركَّب يفيده في إجراءات بحثه، من أجل أن يكون متوازنًا دون أن يغفل عن أيِّ متغيّر من المتغيّرات الرَّئيسة والمتداخلة في موضوع بحثه، والتي قد تؤثِّر سلبيًّا على نتائج بحثه لو لم يتداركها بالبحث والتقصّي الدقيق.

2 . ما هي القيم التي أكدت الدِّراسات السَّابقة عليها؟ وما هي القيم التي أثارتها دون أنْ تؤكِّد عليها؟

إجابة الباحث عن هذا السؤال تلفت انتباهه لِما يجب أن يقوم به حيال بحثه، فيتداركه قبل أن يتعرّض للمسألة، أي: عندما يضع الباحث أمام ذاكرته هذا التساؤل فلن يغفل عن القيم التي يمكن

أن تثار في بحثه، والقيم التي يجب عليه إثارتها ونفض الغبار عنها، وتبيانها وأهميتها في التأثير على متغيّرات البحث، وسلوك الفرد، والجماعات والمجتمعات، ولتكون بين أيدي النَّاس متجسّدة في القول والفعل والعمل والسُّلوك.

3 . إذا كانت هناك توصيات أو مقترحات متضمِّنة في الدِّراسات السَّابقة فما علاقة تلك التوصيات والمقترحات بالمشاكل البحثية التي تناولتها تلك الدِّراسات السَّابقة؟ ثم ما علاقتها بالنتائج التي توصَّل الباحث إليها في بحثه أو دراسته؟

هنا يجب أن ينتبه الباحث وإلَّا سيقع في الفخ الذي وقع فيه البعض بأنْ يوصي ويقترح في حين لا توجد علاقة بين توصياته ومقترحاته وبين موضوع بحثه مما يعرِّضه للانتقاد، وأحيانًا إلى عدم إجازة رسالته من قبل لجنة المناقشين والمحكّمين في أثناء المناقشة الرَّسميَّة.

4 . على ماذا أجمعت وتوافقت الدِّراسات السَّابقة؟ وعلى ماذا اختلفت وتباينت؟ وعن ماذا غفلت؟

هل أجمعت على وحدة المصطلح والمفهوم؟ أم أنَّها اختلفت عليه؟ أم أنَّها غفلت بالتمام عن ضبط مفاهيم دراساتها وتحديد مصطلحاتها؟

كلّ هذه الأسئلة إرشادية تفيد الباحث وتلفت انتباهه إلى منهجيَّات البحث، وأهمية متغيّراته في إظهار المعلومة من المعلومة، والحُجَّة من الحُجَّة؛ ولذا على الباحث ألَّا يغفل عمَّا أجمعت الدِّراسات

السَّابقة عليه؛ وذلك ليؤكده بعلميَّة ويثري بحثه به، أو يبطله أو ينفيه بعلميَّة وموضوعيّة، أي: في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يمكن له أن يكتشف ما يُبطل أو ينفي ما أكدته بعض الدِّراسات السَّابقة في مجال تخصُّصه وقيد بحثه.

5 ـ ما هو المتغيّر البحثي الرّئيس الذي ربط بين الباحث ومشكلة بحثه بالدِّراسات السَّابقة واضطره للعودة إليها؟ أم أنَّه لم يرتبط بها إلَّا عناوين عامَّة تشير إلى عنوان بحثه العام؟

بطبيعة الحال إنْ فهم الباحث وألمَّ بمشكلة بحثه ومتغيّراتها ألمَّ بأسرارها، وإن لم يلمَّ بها فلن يلمَّ بأسرارها وخفاياها التي تستوجب التقصي والتتبُّع الدقيق والفطنة والانتباه؛ ولهذا ليس عيبًا أن ترتبط عناوين الدِّراسات السَّابقة بعنوان البحث الذي صاغه الباحث وفقًا لمشكلة بحثه، ولكن التعمُّق البحثي يُمكِّنه من معرفة أدقّ العلاقات التي تستوجب مقارنة مع متغيّرات بحثه وكشفها، ومثل هذه المقارنة تزيد بحثه رصانة، وقوَّة، وأهميَّة.

6 ـ هل كان البحث في ضوء مقارنته بالدِّراسات السَّابقة متميِّزًا عنها؟ وبماذا كان متميّزًا؟

من الصَّعب جدًّا أن أقول: من المؤكد أنَّه كان متميّزًا، ولكن أقول: من المفترض أن يكون متميِّزًا وإلَّا لن يضيف الجديد، ومع ذلك حتى لا يسود التعبير الإنشائي على البرهنة والمحاجَّة العلميَّة نطلب من الباحث أن يخبرنا بما به يتميّز بحثه؛ ولهذا لا ينبغي أن يغفل الباحث

أثناء مراجعته ومقارنته وتحليله للدِّراسات السَّابقة عن إظهار ما تميَّز به بحثه أمام المناقشين وأمام القراء بعد أن يجاز من قبل المناقشين، ويعرض أو ينشر في المكتبات.

ولذا فإنْ لم يتفادَ الباحث هذا الأمر سيجد نفسه أمام السّؤال السَّابق (من قبل المناقشين)، وفي ذلك اليوم تكون الفرص قد انتهت؛ ولهذا ننبّه ونذكّر لعلها تنفع.

7 . من خلال مراجعة وتفحُّص الباحث لمتغيرات الدِّراسات السَّابقة هل تمكَّنَ من معرفة متغيّرٍ رئيس يرى أنَّه ضروري، وكان من الواجب تناوله بالدِّراسة ولكن بعض الدِّراسات أهملته ولم تتناوله بالاهتمام الموضوعي؟

فإذا فطن الباحث لذلك فطن بمتغيّرات بحثه الضروريَّة، وفطن بما يمكن أن يواجه به من قِبل المناقشين أو النُّقاد، وبالتالي يكون قد أقفل بابًا من خلال فتحه أبواب البحث العلمي، ودخوله منها إلى أعماق المعرفة العلميَّة.

8 . هل كانت الدِّراسات السَّابقة مهتمَّة بالتوثيق والعودة إلى المصادر؟ أم أنَّها لم تولِ اهتمامًا واضحًا بذلك؟

بدون شك مناقشة الدِّراسات السَّابقة تتطلَّب من الباحث أن يُقلِّبها من هذا الجانب، فإن لم يُقلِّبها فقد يغفل هو الآخر عن أهمية التأصيل العلمي والعودة إلى المصادر سواء أكانت بشرية أم وثائق مكتوبة ومخطوطة ومطبوعة، أم آثارًا تخضع للمشاهدة والملاحظة.

ولذلك فإنْ لم تولِ الدِّراسات السَّابقة أهمية بالتوثيق والتأصيل يوجَّه النقد العلمي إليها، وتوصف بالدِّراسات التي لا تُسهم في إثراء المكتبات، وهذه تُكتب ميزة للباحث الذي كشف أمرها وعرضها بموضوعية.

9 ـ هل اهتمت الدِّراسات السَّابقة بدراسة المعلومات والبيانات وتحليلها كمًّا وكيفًا؟ أم أنَّها تناولت أحد الجوانب، وأهملت الأخرى؟

بدون شكّ تكون الأهمية العلميَّة عندما تُقلَّب المعلومة من جميع جوانبها وزواياها؛ إذ لكل زاوية قراءة ودلالة فلا ينبغي أن يغفل الباحث عنها؛ ولهذا تكون الفرصة متاحة أمام البحَّاث؛ لينتبهوا إلى أهميَّة ذلك عندما يجرون بحوثهم العلميَّة، فكما نعطي للإنسان قيمة أخلاقية عامَّة نُعطي أهميَّة لمساهماته الكميَّة في الإنتاج، وهكذا نُعطي أهميَّةً لعمره عندما نقارنه بعطاء أعمار الآخرين.

إذن: على الباحث ألَّا يغفل عن تقليب المعلومات والبيانات من أوجهٍ عدَّة في الدِّراسات السَّابقة، وكذلك تقليبها في بحثه بأكثر تقنينًا وموضوعيَّة؛ ليزداد رصانة وعمقًا في توليد المعلومة من المعلومة، والفكرة من الفكرة، ومن ثمَّ يتجنَّب ما غفلت عنه الدِّراسات السَّابقة التي تناولها بالتفحُّص والمراجعة الواعية.

وعليه: إن لم يعرف الباحث ويكتشف ما غفلت عنه الدِّراسات السَّابقة فلن يجد مكانًا لائقًا لبحثه، ولن يكون مسهمًا في

إضافة الجديد المفيد؛ ولذا فمن غير المقبول ألَّا يكتشف الباحث ما غفلت عنه الدِّراسات السَّابقة، أي: لابدَّ وأن تكون قد غفلت حيث لا كمال إلا لله تعالى، وهذه فرضيَّة دائمًا مستمرة وهي: (كلّ دراسة لابد وأن تغفل عن شيء هو مفيد لمن يأتي من بعد من أجراها لتفسح مجالات جديدة أمام البحاث).

ولهذا فمن الأهمية أن يتوجَّه الباحث إلى الدِّراسات السَّابقة ليتبيّن مكامن القوَّة والضّعف فيها، وكذلك مكامن الفطنة والغفلة، ومكامن العلَّة والمعلول، والسَّبب والمسبّب أيضًا.

10 . من خلال دراسة ومراجعة الباحث للدِّراسات السَّابقة هل تبيَّنَ له ما أكّدت عليه الدِّراسات السَّابقة إن جاءت مؤكدة على شيء ما؟ وهل هناك تناقض بين الدِّراسات السَّابقة وما يؤكِّده بعضًا منها؟

لا يُقبل من الباحث الذي استطلع الدِّراسات السَّابقة ألَّا يكشف أو يُبرز ما تؤكّد عليه تلك الدِّراسات، ولا يُقبل منه ألَّا يبدي رأيًا علميًّا تجاهه؛ وكذلك لا يُقبل ألَّا يبدي رأيه العلمي تجاه المتناقض منها، ومن هنا فإنْ لم يكتشف الباحث هذا التباين ويظهره حجَّة، فقد ترك فسحة لغيره وقد يكون من بين هذا الغير أحد المناقشين لرسالته، وحينها يجد نفسه أمام موقف محرج، وقد لا يستطع القيام على قدميه ممَّا ألمَّ به من وهنٍ.

11 . بعد أنْ يدرس الباحث بعناية الدِّراسات السَّابقة ذات العلاقة بمشكلة بحثه، هل يمكن له أن يخرج بنتائج جديدة؟ أم أنَّه كمن لكَّ علكة، سبق وأن لكَّها غيره؟

أقول:

إنَّ لم يخرج الباحث بنتيجة من مجموع الدِّراسات العلميَّة المجازة سابقًا فقد حكم على نفسه بأنَّه في حاجة لإعادة دراستها، وبالتَّالي ليس له إلَّا الإعادة، وإلَّا سيضع نفسه في خانة الغافلين عمَّا لا يجب الإغفال عنه، وبالتالي أسهم في الحكم على رسالته بأن تكون مع تلك المهملات.

12 . إذا كان للبحث إطارًا نظريًّا، وآخر عمليًّا أو معياريًّا أو ميدانيًّا، فهل تمكَّنَ الباحث من معرفة ما يفده من الدِّراسات السَّابقة في إثراء إطاري بحثه؟ أم أنَّه درس ولم يجد ما يفده لأيٍّ منهما؟ أم أنَّه وجد ما يفده في أحدهما؟

إذا تعرَّف الباحث على ما يُجيب به عن هذه التساؤلات، يكون قادرًا على مقارنة الدِّراسات السَّابقة وقادرًا على الاستفادة مما وصلت إليه من نتائج، وما كشفته من قضايا، وتكون الدِّراسات السَّابقة مثرية لبحثه، وبالتالي يجد الباحث نفسه قد حقَّق هدفًا من استهدافها بالدِّراسة.

13 . هل أجريت الدِّراسات السَّابقة على المجتمع أم على عينة منه؟

فإن أجريت على المجتمع (مجتمع المشكلة أو الظَّاهرة) كانت النتائج موضوعيَّة، ولكن إن أجريت على عيّنة منه فهل يحقُّ لنا وصف نتائجها بالموضوعيَّة، أم من الموضوعيَّة أنْ نقول: إنَّها على درجة من الموضوعيَّة؟

في هذه القضيَّة لا اتفاق، فهناك من يراها موضوعية ولا اختلاف، ونحن نراها مختلفة؛ لأنَّ نتائج العيِّنة مع أنَّها تعطي مؤشِّرات لما يجري في المجتمع الذي أخذت منه، فإنَّها لا تمثِّل إلَّا نفسها؛ ولأنَّها لا تمثل إلَّا نفسها فإنَّ درجة تمثيلها هي درجة من الموضوعيَّة.

ولمتساءل أنْ يتساءل:

ماذا تعني بقولك: (هي على درجة من الموضوعيَّة؟

أقول:

إنَّها لم تكن موضوعيَّة، ولكنَّها على درجة من درجاتها؛ وذلك لأنَّ العيِّنة كلَّما كبر حجمها اقتربت من حقيقة المجتمع، أي: اقتربت من الموضوعيَّة.

ولتوضيح ذلك أطرح الأسئلة الآتية:

-هل المريض يمثل المرضى؟ أم أنَّ الطبيب هو من يمثلهم؟

-هل الغني يمثل الفقير في إحساسه بآلام الفقر والعازة؟

هذه الأسئلة تحتاج إلى جدل للإجابة عنها حتى وإن شعرنا بما تتضمَّنه من إجابات؛ لأنَّ أسبابها وظروفها مختلفة حسب كلّ حالة أو موقف.

ومن خلال محاولتنا تفكيك معطيات هذه الأسئلة وتحليل متغيِّراتها الموضوعيَّة يتضح أمامنا مدى أهمية دراسة العينة من عدمها وعيوبها في الدراسة والتشخيص والعلاج، ومدى إمكانية الاعتماد عليها من عدمه.

فإذا حللنا السُّؤال الأوَّل فإنَّنا نجد أنَّ المرض لا يحسّ به إلَّا المريض، مع تقديرنا للفروق الفرديَّة؛ إذ كلّ مريض يختلف عن الآخر في درجة تحمُّله وإحساسه بالآلام وشدَّتها؛ فنجد الذي يتألم في صمت، ونجد الذي يصرخ بصوت عالٍ، وآخرون أقل هدوءا.

وعليه: لا يمكن أن يمثل أحد آخر في مرضه، أو درجة إحساسه بالألم؛ ولذلك لا يمكن لعيِّنة من المرضى أنْ تمثل كل المرضى وإن كان نوع المرض واحد.

ومع أنَّ الطبيب المختصّ قادر على معرفة نوع المرض، واكتشاف أسبابه، وتحديد العلاج المكتشف له والمناسب، وتحديد الزَّمن المناسب للقضاء عليه، فأنَّه لا يمكن له أنْ يعرف درجة الآلام التي يعاني منها المريض ووطأتها على أوصاله؛ فالطبيب بالرُّغم من أنَّه يعرف المرض لكنَّه لا يحس بآلامه.

ولهذا ليس كلّ من يعرف الألم يستطيع أن يمثّل غيره في إحساسه وآلامه ودرجة تحمُّله، ومن ثمَّ فالطبيب مع أنَّه يعرف أنواع الأمراض، وأنواع الأدوية ومؤثراتها الجانبية، وكيفية التشخيص والعلاج حسب كل حالة فإنَّه لا يعمم العلاج بذات الكيفيَّة؛ وذلك مراعاة لكلِّ خصوصيَّة مرضيَّة. أي: يتنوَّع العلاج حتى وإن كان المرض واحد؛ مراعاة للعمر والحالة الصّحيَّة الصغير والكبير، والشيخ، والمرأة والرّجل، مع خصوصيَّة المرأة الحامل عن غيرها من النساء.

وعلى سبيل المثال: إذا حددنا نوع المرض بأنَّه صداع، وشخَّصنا جميع المرضى، وتركنا واحد منهم، فإنَّ الذي لم يفحصه الطبيب لا يستطيع تعميم الدَّواء عليه، ولا على المجتمع الذي أخذت منه العينة؛ لأنَّ العلاج لم يكن للرّأس مباشرة، ولكنَّه للأسباب المختلفة من الجيوب الأنفية، والأذنين، والأسنان، والعينين، والمعدة، أو لعصب من الأعصاب الملتهبة في الرأس وغيرها من الأسباب ذات العلاقة مما يستوجب اختلاف العلاج لكلِّ حالة من الحالات السَّابقة.

وبناء على ما تقدَّم: إذا كان علم الطب لا يعتمد على التعميم والتعامل مع العيّنات المرضية، ولا يعد المريض أيٍّ كان هو أحسن ممثل للمرضى، فكيف لنا القبول بها أحسن ممثلٍ في العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تتعامل مع أحاسيس ومشاعر، وعواطف، وميول، واتجاهات، وغرائز، وحاجات تترجم في سلوك مختلف بين شخص وآخر؟

وبإعادة طرح السُّؤال الثاني: هل الغني يستطيع أن يمثِّل الفقير في إحساسه بآلام الفقر؟

أقول:

بما أنَّ المرض لا يحسّ به إلَّا المريض، وأنَّ الطبيب لا يستطيع أن يمثّله فيه كما لم يستطع غيره من المرضى أن يمثله فيه، فكذلك حال الغني مع الفقير؛ لأنَّ الغني مهما فكَّر أو حسَّ بحالة فقير ما، لم يستطع أن يغوص في معرفة الظُّروف الخاصَّة بالفقير، مع أنَّه سيكون أكثر قدرة على توصيل مشاعره وظروفه الإنسانية إلى الآخرين، ويستطيع أن يجيب عن إمكاناته الذَّاتية وحاجاته، وكيفية معالجتها؛ وعليه: كيف يعتقد البعض في تمثيل المريض للمرضى، وتمثيل الأغنياء للفقراء أو بالعكس؟

وعلى سبيل المثال: عندما يكون المجتمع فقيرًا فعلى البحاث والدَّارسين التوجُّه إلى دراسة ظاهرة الفقر في ذلك المجتمع؛ ليعرفوا أسبابها ومكامن عللها، ويعملون على إيجاد المعالجات الاقتصادية والسياسية التي تفيد في استثمار إمكانات البلد، ومن ثمَّ تسخير طاقاته البشرية إلى الإنتاج، لا أنْ توجَّه الدِّراسات والبحوث في ذات المجتمع الفقير إلى دراسة الأغنياء منه لتعمِّم من بعد نتائجها على المجتمع، وتأتي لنا لتقول: إنَّ العيّنة كانت ممثلة للمجتمع، ونتائجها تعمّم عليه وكأنَّ المجتمع بأسره غنيٌّ.

14 . وعودٌ على بدء:

ما مدى أهمية الدِّراسات السَّابقة في توصيف الظَّاهرة، أو المشكلة؟ وكيف فسَّرتها؟ وما هي القضايا التي أثارتها في ميادين البحث العلمي؟

بطبيعة الحال: إذا رَجَعَ الباحثون في دراساتهم السَّابقة إلى النظريَّات ذات العلاقة بتلك الظّواهر والقضايا فمن المفترض أن يكون من أجراها متمكِّنًا من توصيف تلك الظواهر والمشاكل والقضايا، ومن لم يَعُد إلى النظريات ويقوم بمراجعتها بهدف الاستئناس بها والاستئناس إليها يكون قد غفل عمَّا يفيده، وكذلك إنْ رجع إليها ولم يتمكَّن من التوصيف فهو في كلا الحالتين يُعد من الغافلين؛ لذا يستوجب على الباحث أن يوجِّه مآخذه الموضوعية للدِّراسات السَّابقة التي لم تتمكَّن من توصيف الظَّاهرة، أو المشكلة البحثية، ويجب عليه ألَّا يغفل عن أهمية ذلك.

وعليه: تعد الدِّراسات السَّابقة أكثر أهمية إذا أثارت قضايا، أمَّا إذا لم تُثِر قضايا فلن تستفِزَّ البحاث علميًّا، ولا تلفت انتباههم إليها، فعندما تكون ذات أبعاد متعدِّدة قد تمتد إلى مجالات أخرى متعدِّدة فتؤثِّر فيها سلبيًّا أو إيجابيًّا؛ ولذا فإن لم يولِ المجتمع اهتمامًا بما توصَّلت إليه مثل هذه الدِّراسات فقد يجد نفسه في مواجهة مشاكل هو في غنى عنها.

15 . هل الدِّراسات السَّابقة ركَّزت، وأولت اهتمامًا بالتَّحليل الموضوعي للمعلومات؟ أم أنَّها أولت اهتمامًا بتفسيرها (تفسير المعلومات)؟

على الباحث أن ينتبه إلى الكيفيَّة التي بها تصرَّف الدارسون في تلك المعلومات التي جمَّعوها من مصادرها، فهل قاموا بتجميع المعلومات ثم أجروا تحليلًا لها؟ أم أنَّهم جمَّعوا المعلومات ثمَّ قاموا بتفسيرها؟

فإن وجد الباحث أنَّهم جمَّعوا المعلومات، ثمَّ حلَّلوها، ثمَّ من بعد تمكَّنوا بموضوعيَّة من استخلاص النتائج منها فهذا الأمر يبرهن على صواب المنهجيات البحثية التي اتبعوها، وفي مقابل ذلك إنْ توجّهوا إلى تجميع المعلومات ثم قاموا بتفسيرها، فهنا وجب النقد الموضوعي الذي ينبغي أن يُوجَّه إليهم أو إلى بعض منهم، وإن عرف الباحث ذلك جيدًا يكون قد عرف كيف لا يكرر أخطاء وقع فيها من سبقه من الدَّارسين أو الباحثين، ويكون قد ألمَّ بالقاعدة التي تنصّ على أنَّ: (المعلومات تجمَّع من مصادرها؛ لتحلل بهدف تحقيق النتائج التي من بعدها تكون قابلة للتفسير).

وبناء على هذه القاعدة، لا يجب تفسير المعلومات، بل يجب أن تحلل المعلومات حتى يتمكَّن الباحث من الوصول إلى نتائج علميَّة، أي: إنْ لم تخضع المعلومات للتحليل العلمي لا يمكن أن يتوصَّل

الباحث إلى نتائج علميَّة، وإنْ لم يتوصَّل الباحث إلى نتائج علميَّة وموضوعيَّة فهو كمن لم يجرِ بحثًا مع أنَّه قد أهدر وقتًا وضيَّع وجهدًا.

16 ـ هل الدِّراسات التي رجع الباحث إليها تأسَّست على دراسات سابقة؟ أم أنَّها لم تكن مؤسَّسة على دراسات سابقة؟

بطبيعة الحال إذا كانت العودة للدِّراسات السَّابقة ضرورة لاستمداد الحجَّة والقوَّة منها فتكون العودة حميدة، وإن لم تكن هناك عودة للدِّراسات السَّابقة فهذا يعني أنَّ الدِّراسات التي بين يدي الباحث فقدت عنصرًا مهما من عناصر استمداد القوَّة العلميَّة؛ وهنا وجب الالتفات إلى هذه الأهميَّة والضرورة العلميَّة التي ينبغي ألَّا يغفل البحَّاث عنها أثناء قيامهم بالبحوث العلميَّة التي تؤصِّل الحقائق وتستكشفها وتظهرها أمام الآخرين.

17 ـ هل الدِّراسات التي تم الرّجوع إليها قد وُظِّفت من قِبَلِ الباحث في تحديد أبعاد مشكلة بحثه؟ وهل لَعِبَ هذا التوظيف دورًا بارزا في إثراء المشكلة البحثيّة التي يوليها الباحث اهتمامًا؟

بطبيعة الحالة البحثيَّة: إذا لم توظَّف الدِّراسات السَّابقة في تحديد أبعاد المشكلة البحثيَّة المترتِّبة عليها تعد فاقدة للأهميَّة، وإن كانت فاقدة للأهميَّة يكون اختيار الباحث لها في غير مكانه، ومن هنا توجَّه الانتقادات إليها.

ولذا لا ينبغي العودة للدِّراسات السَّابقة بغرض جعلها فصلًا لملئ الفراغ، بل يجب أن توظَّف بما يخدم قضايا البحث ومشكلته

الرَّئيسة، وبذلك تكون متغيّرات البحث على علاقة بمتغيّرات الدِّراسات السَّابقة؛ ولهذا يجب عند تحليل المعلومات ألَّا تُغيَّب الدِّراسات السَّابقة وكأنَّها لم تكن.

وهنا علينا أن ننتبه إلى جانبين:

أ ـ ما يتعلّق بالدِّراسات السَّابقة: يجب تفحُّصها من قبل الباحث من حيث: هل كانت الدِّراسات السَّابقة قد استفادت من دراسات سابقة عليها في تحديد مشكلاتها البحثيَّة، وهل وظِّفت تلك الدِّراسات في تحليل المعلومات من خلال مقارنات موضوعيَّة؟ أم وكأنَّها لم تكن؟

ب ـ ما يتعلّق بالباحث: ألَّا يغفل الباحث عن أهميَّة ما ذكرنا، أي: يجب على الباحث أن يوظِّف الدِّراسات السَّابقة في تحديد مشكلة بحثه، وكذلك في تحليل متغيّراته العلميَّة، ومقارنة نتائجه بنتائجها، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد وقع فيما وقع فيه من سبقه من أخطاء.

18 ـ هل تمكَّن الباحث من معرفة المرتكزات الرَّئيسة التي يشترك فيها بحثه مع الدِّراسات السَّابقة التي تناولها بالدِّراسة؟ أي: هل هناك بعض من الأهداف المشتركة؟ أم أنَّه لا اشتراك إلَّا في الأهمية العلميَّة التي يتولَّاها الباحث بالبحث؟ أم أنَّ بعض المتغيّرات المتداخلة أو الدَّخيلة على علاقة واضحة بالمشكلة قيد البحث؟

ولأنَّ أيَّ بحث علمي يُنجز سيكون بين أيدي القرَّاء والنُّقاد وفي المكتبات الجامعيَّة والمراكز البحثيَّة، أو أن يُنشر في الدوريَّات العلميَّة، إذن: على الباحث أن ينتبه إلى أهميّة ذلك فلا يستعجل على إتمام بحثه فيغفل عن معرفة المرتكزات الرّئيسة للدّراسات السَّابقة ذات العلاقة بمتغيرات بحثه؛ وإنْ غَفِلَ عن ذلك سيكون بحثه معرَّضًا للانتقادات العلميَّة والموضوعيَّة سواء أكان يوم المناقشة، أم بعد ما يجاز البحث ويصبح دراسةً بين أيدي البحَّاث الذين سيأتون من بعده فيوجَّه النقد إليه ويُتَّهم الباحث بالغفلة والتقصير العلمي.

ولذا إنْ كشف الباحث وجود علاقات موضوعيَّة بين المتغيرات البحثيَّة لبحثه وما تثيره الدِّراسات السَّابقة من متغيِّرات فعليه بالمقارنات العلميَّة التي تُمكِّنه من معرفة الأثر، ومعرفة الفارق بين ما وصلت إليه الدِّراسات السَّابقة والنتيجة أو الاستنتاج الذي وصل الباحث إليه، ومعرفة الأسباب التي جعلت من سبقه من البحَّاث يقع في أخطاء التحليل وجعلت منه خير باحث في تفاديها.

19 ـ هل الدِّراسات السَّابقة التي توافرت بين يدي الباحث بحثت في مواضيع ذات مصادر رئيسة، أم أنَّها اكتفت بالرجوع إلى المراجع التي نقلت عنها؟

أقول:

إذا اكتشف الباحث هذا الخطأ، وبيَّنه للقراء، يعد باحثًا منتبهًا وواعيًا بما يجب، وقد أجاد التفحُّص العلمي، والنقد الموضوعي، وقد تجنَّب الوقوع في الخطأ.

ولهذا دائمًا قوَّة البحث تُستمد من قوَّة المصادر التي كلَّما توفَّرت توافرت المعلومة الميسِّرة لمعرفة الحقائق التي يسعى البحاث لمعرفتها، ومن هنا لا يُقبل من الباحث أن يتوجَّه إلى المراجع في الوقت الذي تتوافر فيه المصادر، ومن ثمَّ عندما يكتشف الباحث ذلك فعليه بعرضه بحثًا، والإشارة إليه نقدًا وبكل وضوح.

20 . إذا كانت الدِّراسة السَّابقة التي وقعت بين يدي الباحث قد أجريت في قرية الباحث صاحب الدِّراسة السَّابقة ذاتها؛ فهل كان الباحث متحيّزًا في إجراءات دراسته التي أجراها في قريته، أمّ أنَّه كان موضوعيًّا؟

الجميع يعرف أن التحيُّزَ لا يعد صفة من صفات البحَّاث الموضوعيين، سوى التحيُّز للحقِّ فهو الحقُّ، ومع ذلك إن وجد الباحث أن بعض من الذين قاموا بالدِّراسات السَّابقة متحيِّزون بأسباب دينية أو عرقية أو مكانية فعليه بكشف هذا الأمر، وفي المقابل عليه ألَّا يقع فيما وقعوا فيه من تحيُّزات.

وعليه: يُعد التحيُّز أكبر مؤثّرٍ على نتائج البحث العلمي؛ ولهذا لا ترتقي الدِّراسات المنحازة إلى مراتب البحث العلمي ولا توصف به.

ولذا فإنْ لم يكتشف الباحث التحُّيز الذي اصطبغت به دراسة من الدِّراسات السَّابقة، وجاء من بعده باحثٌ آخرٌ وكشفها، يصبح هذا الباحث من المنعوتين بعدم الانتباه الموضوعي، وقد يوصف بالانحياز لصاحب هذه الدِّراسة حتى وإن لم يكن قاصدًا ذلك.

21 . هل هناك علاقات موضوعيَّة واضحة بين المناهج والطُّرق المتَّبعة والأساليب والوسائل المستخدمة وتلك الدِّراسات السَّابقة؟ أم لا علاقات بين هذا وذاك؟

الدِّراسة، وأي دراسة، وأي بحث علمي لا يمكن أن يكون مترابطًا ومنتظمًا ما لم يكن هناك منهجٌ يَنْظِمَهُ، ولا يمكن أن يُحَقِّقَ البحث أهدافه ما لم تكن له طريقة ذات خطوات واضحة ومحددة، ولا يمكن أن تُصاغ الجُمل وتُعرض القضايا وتحدَّد المفاهيم ما لم يكن هناك أسلوبٌ مناسبٌ لعرضها، ولا يمكن أن تُجمَّع المعلومات بموضوعية ما لم تكن الوسيلة مناسبة لجمعها.

لذا على الباحث أن ينتبه إلى أهمية ذلك، ويتوجَّه إليه بالدِّراسة والتفحُّص حتى يتبيَّن مدى ملامسة المنهج والطّريقة والأسلوب المتَّبع والوسيلة المستخدمة للموضوع، ومدى درجة استخدامها في تحليل المتغيّرات العلميَّة، وإن لم يفعل ذلك لن يتمكَّن من إظهار الحقائق وكشفها علميًّا وموضوعيًّا.

وعليه: فإن اكتشف الباحث وجود علاقات موضوعيَّة واضحة كان من الواجب عليه إظهارها، وإن لم يجد علاقات بينها

فعليه بكشف الحقيقة التي تُظهر الضّعف فيما تمت إجازته من قبل لجنة المناقشين أو المحكِّمين العلميين، أو المقيمين والناشرين الذين غفلوا عن إظهار ما تمكَّن الباحث من معرفته وكشفه؛ ليكون درسًا مهمًا بين أيدي الدَّارسين والمتعلّمين حتى يتفادوه في مستقبلهم بحثًا ونشرًا.

22. ولإعطاء الدِّراسات السَّابقة بُعدًا علميًّا ومنهجيًّا يجب أن يقارن الباحث بين تلك الأهداف التي صِيغتْ في الدِّراسات السَّابقة والأهداف التي صاغها لتقصي مشكلة بحثه؟

أي: هل كانت العلاقات واضحة بين الأهداف والنتائج المتوصل إليها في الدِّراسات السَّابقة، أم هناك اللبس والغموض؟

ولأنَّ الأهداف يأمل الباحث الوصول إليها وإنجازها بما يتوصَّل إليه من نتائج تحتوي معالجات أو حلول لمشكلة البحث؛ لذا فهي تُعد من العناصر الرَّئيسة التي تستوجب المقارنة بينها وما توصلت إليه من نتائج، وكذلك بينها والأهداف المصاحبة لها في الدِّراسات الأخرى التي أخضعها الباحث إلى الدِّراسة، وكذلك مقارنتها مع الأهداف التي حدَّدها الباحث وصاغها لمشكلة بحثه؛ وذلك لمعرفة المرامي التي استهدفتها الدِّراسات السَّابقة، والمرامي التي هي الآن مستهدفة من قبل الباحث، وكلَّما قام الباحث بهذه المقارنات واستنتج ما استنتجه من متشابهات، أو مختلفات، أو متنوّعات يكون قد أعطى بعدًا موضوعيًّا واسعًا لأهداف بحثه، ثمَّ أعطى أهميَّة لِما يقوم به من جهد موضوعي في ميادين البحث العلمي.

ومع أنّ الأهداف ينبغي أن تكون قابلة للإنجاز، فإنَّها لن تنجز برغبة إلَّا إذا كان من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاء. وفي هذا الشأن البحَّاث كغيرهم من النَّاس لا بدَّ وأن يكونوا مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[6].

ومع ذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يظهر الحقيقة، ويكشفها للقراء ارتقاءً ورفعة.

23 ـ هل النتائج المتوصّل إليها في الدِّراسات السَّابقة تُثبت صحة الفروض، أو التساؤلات التي حُددت وصِيغة من أجلها؟ أم أنَّها قد أبطلت بعضها بفروض بديلة؟

الفروض في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قابلة للإثبات وقابلة للرّفض؛ ولهذا ليس دائمًا النتائج تأتي متطابقة أو متوافقة مع الفروض التي يصوغها البحاث، مما يستوجب استبدالها في حالة ما إذا أبطلتها النتائج العلميَّة التي تمَّ المتوصل إليها؛ ولذا عندما يتمّ بطلان أحد الفروض بالبحث والدِّراسة من خلال النتائج المتوصّل إليها لا تُلغى الدِّراسة أو البحث، بل يجب تغيير الفرض الذي أثبت بطلانه بفرضٍ بديل.

---

[6] هود 118، 119.

ولهذا؛ إذا عرف الباحث أن نتائج الدِّراسات السَّابقة لم تُثبت صحّة بعضٍ من الفروض، وأنَّ أحد البحَّاث لم يقم بإبطالها واستبدالها في بحثه بفروض بديلة، يصبح من الواجب عليه أن يوجِّه انتقاداته إلى مثل هذه الدِّراسات وينبِّه عليها، ومن ثمَّ ينتبه هو الآخر من علاقة فروضه بنتائج بحثه حتى لا يقع في الخطأ الذي اكتشفه أو تعرَّفَ عليه عند بعض الدِّراسات السَّابقة التي تناولها بالدِّراسة الموضوعية في إطار بحثه النَّظري.

وعليه:

تصاغ الفروض العلميَّة موضوعيًّا في حالة توفر جزءٍ من المعلومة، وفقدان جزءٍ آخر منها؛ ولذا فالفرض هو تخمين مبدئي يتضمَّن متغيَّرين أو أكثر، ويشير إلى نتيجة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وفي صياغة الباحث لفروض بحثه نحن نتفق مع الفيلسوف ديكارت الذي يرى وجوب الآتي:

1 ـ يجب أن يكون في كلِّ فرض شيء مجهول، وإلا لكان البحث عبثًا ليس إلَّا، فلو كان كلّ ما في الفرض معلومًا لما كان هناك داعٍ لإجراء البحث.

2 ـ يجب أن يتحدد هذا المجهول على نحوٍ ما، وإلَّا لن نستطيع التوجّه إليه دون غيره بالبحث والتفحص؛ مما يستوجب

صياغة الفروض أو التساؤلات صياغات احتمالية غير قطعية وفقًا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

3 . هذا المجهول لا يمكن أن يتعين إلا بواسطة شيء معلوم حتى لا تكون الفروض فاقدة للسَّند الموضوعي لها على أرض الواقع[7].

وإلى جانب ما تمَّ ذكره، يجب ألَّا يغفل الباحث في صياغة فروض بحثه عن الآتي:

1 . ينبغي ألَّا تصاغ الفروض على إثبات المثبت، كأن يحدّد الباحث فروضه على الرّق في الإسلام، فهذا الأمر نتائجه معروفة مسبقًا ولن يصل الباحث فيه إلى الجديد ما لم يربط ذلك بمتغيرات أخرى تابعة ولتكن ذات علاقة بدين غير الإسلام؛ لأنَّ الفروض أساسًا تصاغ لإثبات ما لم يسبق إثباته من قبل.

ولهذا فالفرض لا يصاغ للمثبت، بل يصاغ لِما يود إثباته، وإذا تمَّ الإثبات، وتحقق التجريب والمنفعة، رُسِّخت القوانين، وبُنيت النَّظريات، وصِيغت المناهج التي بها تُفكك المعلومة وتُركَّبُ.

2 . ينبغي أن تصاغ جميع الفروض على قاعدة: (أنَّ لكلِّ مشكلة حلّ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع)، وإذا لم ينطلق الباحث من هذه القاعدة فلا يمكنه صياغة فروض خاصّة بالموضوع،

[7] عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات ألجا، الطبعة الثانية، 1995، ص 29.

ولن يتحفّز لتحقيق أهداف وبلوغ نتائج، أو التمكُّن من اكتشاف القوانين والنَّظريات التي تمدُّ بالجديد المفيد والنافع.

ومن هنا فالفرض دائمًا في حاجة لِمن يعمل على إثباته، أو نفيه، أو بطلانه؛ ولهذا فهو دائمًا في دائرة الممكن.

ولهذا فالفرض يعدُّ تخمينًا مبدئيًّا يستدل به الباحث على إيجاد علاقة بين متغيرين أو أكثر، ولا يعد الفرض حُكمًا على الإطلاق إلا بعد إثباته؛ ولذلك الأشياء المثبتة لا داعي لصياغتها في شكل فروض؛ لأنَّ الأشياء المثبتة تعبِّر عن حقائق مثبتة، والحقيقة الظَّاهرة لا شكَّ فيها، وبالتالي إخضاع المثبت للفرض يعني الشكّ فيه مع أنَّه حقيقة ماثلة أمام المشاهدة والملاحظة، فإذا افترض أحد البحاث أن هذا الشكل (.) هو نقطة، هذا يعني أنَّه يشكّ أن تكون نقطة نتيجة وضعه لها في فرض احتمالي؛ ولكن لأنَّ النُّقطة لم تكن موضوع شكّ؛ لأنّها مسلّمة مثبتة بمثولها أمام أنظارنا، وسبق أن استعملت ومازالت تستعمل في تمييز الحروف من قبل القراء والكتاب فإنَّ إخضاعها للفرض لن يهزّ الثِّقة فيها؛ لأنَّها مثبتة؛ ولذلك لا ينبغي أن نُخضع المثبت للاحتمال الفرضي، بل الفروض ينبغي أن تكون احتمالية الحدوث في دائرة الممكن، ولا تكون قطعيَّة الإثبات (لا شكّ فيها) فإذا افترض أحد أن الله هو الذي لم يخضع للمشاهدة، فهل يستطيع هذا الباحث إثبات عكس ذلك؟

إنَّه لن يستطيع، فالله حقيقة لن يخضع للمشاهدة؛ لأنَّه المدرك بالوجود إدراكًا تامًّا فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يرانا ولا نراه، وهو بما نعمل بصير، مصداقًا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[8]؛ ولذا وفقًا للقاعدة الموضوعية: (الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه) قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[9].

بناء على ما تقدم: لا ينبغي أن تكون الفروض (قطعيَّة)، بل ينبغي أن تكون (احتمالية في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع)؛ وذلك لأنَّ القطعي مثبت أمَّا الشَّكّي فمحتمل.

ومن ثمَّ فالفروض تتضمن في محتواها قرارًا مبدئيًّا لحلِّ مشكلة، أو محاولة لحلها، أو إيجاد معالجات لمعضلة من المعضلات التي تعيق العلاقات الاجتماعية، أو تعيق عملية الإنتاج، أو الإدارة، أو المهنة والحرفة، أو تحول بين المرء وتكيُّفه، أو توافقه الاجتماعي والنفسي، أو لتحسين وتجويد تقنية من التقنيات وغيرها كثير؛ ولهذا تعدُّ الفروض مهمّة للبحث كأهميّة العمود الفقري لجسم الإنسان من خلال انتظام البحث في فروضه الذي يشابه انتظام الجسم والتفافه على عموده الفقري.

---

[8] آل عمران، 156.

[9] البقرة، 232.

ولهذا فالفروض العلميَّة تحمل أبعاد الموضوع فيها، وتعد تفسيرًا مبدئيًّا له (للموضوع أو للظاهرة قيد البحث)، أي: إنَّها تحمل مضامين التفسير فيها من خلال تحليل علاقاتها ومستهدفاتها لكي يتم التأكد من إيجابية الإثبات، أو سلبيته، أو بطلان الفرض بالنتائج المتوصّل إليها؛ ومن ثمَّ يكون دور الباحث اكتشاف هذه الأبعاد وتبيانها للآخرين لأجل معرفة أهميتها، وأهمية الفروض في تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص الحالات، وبلوغ النتائج وتفسيرها؛ وذلك بالوقوف عن وعي على حقائق كانت مجرد افتراضات.

ولذا فالفرض العلمي هو الذي تكون من ورائه حكمة حتى تكون له دلالة ومعنى، ويكون له بعدًا علميًّا ومنهجيًّا، ويحقق نتائج تهم الذين أجرى البحث من أجلهم.

ولأنَّ الفروض احتمالية قد تصدق تخميناتها، وقد لا تصدق، وبالتالي لا يعد العمل بها إلَّا في ضوء ما تحقِّقه من نتائج؛ ولهذا لا يعد العمل بها إلَّا مشروعًا مبدئيًّا يقرِّره الباحث، ويصوغه بوضوح لكي يتمكَّن من تتبُّع خطوات منهجيّة منظَّمة تُمكِّنه من إثباته.

ومع أنَّ للفروض أهمية كبرى تجعل الباحث ينتهج طريقًا بحثيًّا وعن وعي وانتباه، وتنظيم رفيع في أفكاره وتسلسلها العلمي والمنطقي، إلَّا أنَّه ليس بالضرورة أن يكون لكل بحث من البحوث العلميَّة فروضًا. فإذا طُلِبَ منا القيام ببحث للتعرُّف على المراحل التي تمرّ بها أسعار السُّوق للمنتجات المحليَّة، فإنَّ ذلك لا يتطلّب بالضّرورة وضع فروض

والتأكد منها، وهكذا في مجال البحوث الاستطلاعيَّة، والبحوث المسحيَّة الميسرة.

تصاغ الفروض وتحدّد بهدف التأكد من العلل والأسباب التي تكون وراء الظاهرة (قيد البحث) للوصول إلى معرفة الحقائق والعمل على تفسير نتائجها، واستنباط الحلول المناسبة لها.

وبما أنَّ الفروض تتضمَّن في محتواها متغيِّرات، فإنَّ المتغيّر الواحد قد يأخذ قيمًا مختلفة، ويمكن ملاحظة التغيّرات التي تطرأ على قيمه أو السّلوك المستهدف منه، وقد يأخذ المتغيّر الواحد قيمتين فقط كالنوّع (ذكر أو أنثى).

ولأنَّ المتغيرات ألفاظ ورموز ذات دلالة بما تتضمنه من معاني ومعارف فتكون الفروض هي العلاقة بين المتغيرات المستقلّة والتَّابعة والدَّخيلة والمتداخلة في مشكلة البحث أو إشكاليَّته.

فإذا افتراضنا أنَّه: (كلّما ارتفع المستوى الثقافي، تحسَّن المستوى الصّحي). فيوصف هذا الفرض بأنَّه اشتراطي، أي: إذا ثبت صحّة هذا الشرط كان الفرض صادقًا، وإذا لم يثبت البحث تحسُّن المستوى الصّحي بسبب ارتفاع المستوى الثَّقافي، فيكون الفرض خاطئًا؛ مما يدعو إلى إعادة صياغته من جديد، وحسب ما توصل إليه الباحث من نتائج، وكذلك إذا افترضنا أنَّه: (كلَّما ارتفع مستوى الدّخل ارتفع مستوى التعلم)، فإن هذا الفرض هو الآخر اشتراطي، أي: إنَّه اشترط ارتفاع المستوى التعليمي بارتفاع مستوى الدّخل،

ولكن يجوز أن يثبت البحث بطلان هذا الفرض؛ مما يجعلنا نقول: ليس كلّ تخمين صادق، (ليس كل فرض صادق)؛ لأنَّه لو كان كل فرض صادقًا لما كان لنظرية الاحتمالات وجود، وما كان بين أفراد المجتمع كاذبون أو صادقون، أو أنَّهم على غير بيِّنة.

وتتضح الفروض عند الباحث باكتمال الإطار النَّظري الذي يستمد من النظريات العلميَّة وفقا لمجالات التخصص؛ ولهذا يُعد الإطار النظري هو الخلفية العلميَّة التي تسند الإطار العملي أو المعياري بالحقائق والحُجج من مصادرها الفكرية والمعرفية التي تدلّ على وضوح الموضوع في ذهن الباحث أو الباحثين؛ ولهذا يستوجب على الباحث أن ينطلق من خلفيّة علميَّة واضحة، لكي يصوغ فروضه بدقَّةٍ ووضوح متميّزين وهو يؤسّس قاعدة علميَّة متينة يستند عليها في تناول القضايا العلميَّة وفقًا لأهداف بحثه، وفروضه، أو تساؤلاته الموضوعيَّة.

فإذا قسّم الباحث بحثه إلى جزأين:

1 . جزء نظري.

2 . جزء ميداني أو معياري كما هو حال البحوث التي تخوض في مجالات دراسة القيم التي تُستخدم فيها المقاييس العلميَّة التي تسندها الوسائل الإحصائية، وأساليب عرضها للمعلومات المحللة، والنتائج المتوصَّل إليها.

ولذا فالبحث المتفرع إلى جزأين: نظري، وميداني أو عملي أو معياري ينبغي أن تكون صياغة فروضه مجسّدة للعلاقة بين الإطار

النَّظري والعملي أو المعياري أو الميداني؛ فعلى سبيل المثال: (كلّما قلَّ دخل الرّجل قلّت فرص العمل أمام المرأة). هذا الفرض قابل للإثبات وقابل للبطلان؛ وذلك باستكمال البحث في الإطارين: (النظري والعملي) فإن وصل الباحث إلى النتيجة الآتية: (إنَّ فرص العمل تزيد أمام المرأة عندما يقلّ دخل الرّجل). إذن: نتيجة البحث قد أبطلت الفرض؛ ولهذا ينبغي على الباحث أن يصوغ الفرض البديل الذي أثبت بالبحث، وهذا لا يعني أنَّ البحث لا قيمة له، بل إنَّه على الأهميَّة التي بها تم استبدال الفرض الرَّئيس الذي أبطلته نتائج البحث المتوصل إليها بالفرض البديل.

فتكون صياغة الفرض البديل الذي حلَّ محل الفرض الرَّئيس على النحو الآتي: (كلَّما قلَّ دخل الرّجل قلّت فرص العمل أمام المرأة).

وعليه:

يصبح الفرض البديل بعد إثبات بطلان الفرض الأوَّل الفرض الرَّئيسي (الأساسي) في البحث، وظهور مثل هذا الفرض لم يكن غريبًا بل إنَّه مألوف في العلوم بشكل عام الطبيعية والاجتماعية، والإنسانية؛ ولذلك يُعد البحث الميداني في مثل هذه الحالة تصحيح لفرض نظري، ونحن سبق وأن قلنا: إنَّ الفرض هو تخمين مبدئي، ولن يكون نهائيًّا إلا بعد تجميع البيانات وتحليلها والوصول إلى نتائج واضحة ومحددة.

ولذا فإن أساليب البحث من حيث الهدف تنقسم كما يقول الدكتور سمير نعيم إلى قسمين:

القسم الأوَّل:

"يهدف إلى التحقّق من صدق أو خطأ فرض معيّن، ويتّضح هذا النّوع في الأسلوب التجريبي.

القسم الثاني:

ويهدف إلى التوصّل لفرض يمكن التحقّق منه في دراسة تالية، أو لوصف حقائق قائمة"[10].

ويتَّضح هذا النَّوع في الأسلوب الاستطلاعي والوصفي، إلَّا أنَّ اتِّباع المنهج التاريخي يُمكِّن الباحث من الاستفادة من هذين الأسلوبين الواردين في القسم الأوَّل والثاني.

إذن: يعد الفرض العلمي مقدمة من مقدّمات القياس، ونقطة البدء في كلّ برهنة وتحليل، وهو المنبع الأوَّل لكلِّ معرفة، أي: الفرض هو الذي يستخدمه الباحث في تقصي الحقائق[11]؛ ولهذا فالفرض مرشد الباحث إلى أهدافه، وهو الذي يحمل البحث في أحشائه، فمن الفروض تولد البحوث، وتستمدّ القوَّة والرَّصانة، ومن

---

[10] سمير نعيم، المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية، القاهرة، المكتب العربي للأوفست، الطبعة الخامسة، 1992، ص 132.

[11] عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص 160.

البحوث تستنبط الفروض والتساؤلات، وهكذا كلّ بحث جديد يصبح قديمًا باكتماله وخروجه إلى حيّز الوجود، مما يجعل بحوثًا أخرى قد تترتَّب عليه من أجل استكمال جوانب أخرى تتعلَّق به، أو من أجل دحضه بالحقائق الجديدة، أو نتيجة إثارته لقضايا مهمَّة قد تستفز باحثين آخرين في مجاله، أو في مجالات أخرى.

إذن: الفرض هو الخيط المنظّم للبحث، وينتسب الفرض للبحث كما ينتسب الخيط للمسبحة، أي: لا تنتظم حبَّات المسبحة مع بعضها البعض ولا تظهر في شكل منظم ما لم تنتظم في خيطها اللائق بها، والذي بدونه تصبح حبَّات المسبحة متناثرة لا علاقة بينها؛ فهكذا البحث لا يمكن أن تكون له وحدة بنائية تُظهِره في شكله اللائق به وتميزه عن غيره من البحوث الأخرى ما لم تكن له فروض خاصَّة به.

ومن هنا فالفروض تُظهر وحدة البحث، والتي بدونها يكون الباحث مشتت الأفكار والمعلومات، لأنَّ الفرض هو الذي يتمحور البحث عليه من البداية إلى النّهاية بإطاريه النظري والميداني أو المعياري. ويعدّ الفرض بالنسبة إلى الباحث كالضوء بالنسبة إلى سائق السيَّارة ليلًا، فالفرض هو الذي ينير طريق الباحث اتجاه أهدافه كما ينير الضوء طريق السَّائق تجاه غاياته وهو يشق الظُّلمة؛ ولذا يعد الفرض تفسيرًا مبدئيًّا للظَّاهرة أو المشكلة أو الإشكالية (موضوع البحث) من خلال الأفكار التي استوعبها الباحث عن الموضوع، والرؤية التي يعتقد أنَّها تبرهن على علله وتحقّق أهدافًا محدَّدة الوضوح.

24. هل الوضوح كان حليفًا لصياغة المصطلحات والمفاهيم العلميَّة في الدِّراسات السَّابقة؟ أم أنَّ بعضًا من المصطلحات والمفاهيم ما زال محفوفًا باللَّبس والغموض؟

من خلال مراجعة واستقراء وتتبُّع وتفحُّص الباحث للدِّراسات السَّابقة لا بدَّ وأن تتَّضح أمامه المصطلحات والمفاهيم التي استخدمها البحَّاث في تلك الدِّراسات، فإن تبيَّن له أنَّ غموضًا قد أحاط ببعض منها فعليه بالإشارة إليه.

ومع ذلك قد يتساءل البعض:

لماذا الدِّراسات السَّابقة؟

أقول:

لكي يجد الباحث مكانًا لائقًا ومناسبًا لبحثه، ولكيلا يجد نفسه يكرر ما سبق أن بُحِثَ من قِبل الذين سبقوه في مجالات وميادين تخصصه أو اهتماماته.

وقد يتساءل البعض أيضًا:

لماذا سميت البحوث السَّابقة بالدِّراسات السَّابقة ولم تسمّ بحوثًا كما هي عليه؟

أقول:

تلك الدِّراسات هي في حقيقتها بحوث سابقة؛ ولذا فهي لا توصف بغير ذلك لمن أجراها وقام بها بحثًا وافيًا، وكذلك لمن قام بالإشراف عليها أو شارك في مناقشتها.

أمَّا كونها دراسة فالأمر يعود لما يبذل من جهد من قِبل الباحث الذي يقوم باستطلاع جهد أحد الباحثين الذين سبقوه بالبحث في مجال تخصّصه، أي: إنَّ الدِّراسة تعني استطلاع البحوث المجازة اعتمادًا، والمنشورة رسميًّا.

ومن ثمَّ فالوصف بالدِّراسة نسبة إلى الجهد الذي يبذله الباحث الذي يقوم باستطلاعها؛ كونها إنتاجًا جاهزًا من قبل السَّابقين، أي: إنَّ البحث في أثناء إجرائه لا يوصف إلَّا بحثًا، ولكن بعد إنجازه وإجازته اعتمادًا ونشرًا يصبح بين من يقوم باستطلاعه دراسة، بمعنى يوصف جهد الباحث المستطلع بالجهد الدِّراسي.

وباستطلاع الدِّراسات السَّابقة نلاحظ أنَّ العلوم بمختلف ميادينها ومجالاتها وروافدها تصبّ في محيط المعرفة الذي يثرى بكل بحث علمي جديد، وتثرى البحوث هي الأخرى بما ترتوي به من ينابيع المعرفة، وهكذا تتأثّر البحوث الجديدة بالدِّراسات والبحوث التي سبقتها وهي كذلك تؤثّر فيها؛ لأنَّ المعرفة واحدة، وإن تعددت ميادينها ومجالاتها أو اختلفت، ولكي يجد الباحث مكانًا لبحثه بين البحوث التي سبقته ليس له بدٌّ إلَّا أن يطَّلِعَ عليها قبل كتابة بحثه حتى لا يضيع جهده هباءً مع هبَّات الرِّياح، فإذا كان بحثه تكرارًا لبحوث

سابقة لا يلتفت القراء إليه، ولا يحترم صاحبه، ولا يُقدَّر من قبل الآخرين؛ ولهذا لن يكون لبحثه مكانًا بين البحوث والدِّراسات التي سبقته في ميدان تخصُّصه، أو في ميادين أخرى ذات علاقة، أمَّا إذا تمَّ الاستطلاع بوعي، فإنَّ مشكلة البحث ستكون على أهميَّة بمبرّراتها الموضوعيَّة، ويكون للبحث مكانًا متهيئًا بين البحوث التي سبقته.

وتعدُّ مرحلة استطلاع الدِّراسات السَّابقة مهمَّة مرَّتين:

الأولى: قبل أنْ يحدّد الباحث موضوع بحثه، أي: في أثناء الحيرة التي تصاحبه في أثناء تفكيره وسعيه لأنْ يبحث في إشكاليّة على درجة من الأهمية العلميَّة، حينها يكون الباحث في حاجة لأنْ يقرأ في ميادين المعرفة الواسعة ومجال التخصُّص؛ لأجل إيجاد متاحٍ ميسّرٍ يُخرجه من حيرته التي في بعض الأحيان تضيق نفسه منها، فعندما يكون الاستطلاع واعيًا بالقراءة النقدية وواعيًا بالمفارقات المنهجيّة التي انتهجها من سبقه في مجالات البحث العلمي يُمهد الطريق للباحث حتى يتعرَّف على مكامن الضّعف والخلل والخطأ، أو الغفلة التي وقع فيها من سبقه من البحَّاث؛ وكذلك من خلال شكّه العلمي وانتباهه لما يجري من حوله يستطيع أن يحدد موضوع بحثه بوضوح.

ومع أنَّ الحيرة العلميَّة تضيق بعض الأنفس بها، فإنَّه لا بلوغ لمعرفة علميَّة واعية إلَّا من بعد حيرة؛ ولذلك فبقاء الباحث في زمن الحيرة دون هروب منها يُخرجه من كل غموض ولبس إلى مكامن العلل

والأسباب التي تكمن فيها إشكالية البحث أو مشكلته، وحينها يسعد ومن بعدها لن يكون غيره أكثر إلمامًا منه فيما بحث وكتب.

وماذا تعني الحيرة البحثية؟

تعني: أنَّ الباحث يحتاج إلى مشرفٍ يرشده إلى قراءات ومناقشات تفتح أمامه آفاق المعرفة العلميَّة التي تمدَّه بالمزيد العلمي والمعرفي؛ ولذا فالحيرة العلميَّة لا تواجه إلَّا الجادين؛ ولهذا ينبغي أن نعرف أنَّ الحيرة هي درجة متقدِّمة من التفكير العلمي المركَّز الذي ينبغي على الباحث تقبُّله وعدم الحياد عنه إلى أن يصل بتفكيره المنظّم إلى الانتباه الذي يقوده إلى الاختيار واتخاذ القرار عن وعيٍ وإرادة ويقين إذ لا خروج من الحيرة العلميَّة إلا بتحديد موضوع البحث الذي تمحور على إشكالية لا مفرَّ من البحث فيها إنْ أردنا حلًّا.

فإذن: الحيرة هي نتيجة الشكّ، وعدم وضوح التخمينات تجاه الموضوع المستهدف بالبحث، وهي مرحلة مهمَّة في التفكير الإنساني عند انتقاله من الشكِّ إلى اليقين، ويقال للإنسان الذي يضل طريقه أنَّه حيران؛ نتيجة عدم تحديده الاتجاه الصَّائب الذي يود السير فيه.

وعليه:

فإنَّ أوَّل مشكلة تواجه الباحث: كيف يتخلَّص من الحيرة التي تعيق تفكيره تجاه تحديد موضوع بحثه؟ وكيف ينتقل من الشَّكِّ إلى اليقين بأنَّ مشكلته البحثيَّة تكمن في القلق الذي يحيط به

والغموض الذي يتطلَّب منه صبرًا مكتبيًّا لاستطلاع ما كُتب عن الموضوع قدر الإمكان في مجال تخصُّصه، والاطلاع على المعارف المتوفِّرة؛ لتساعده على صياغة وتحديد مشكلة بحثه، والتي تنقله من الضلالة إلى الهداية مصداقًا لقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[12]؛ ولهذا الحيرة مقبولة؛ لأنَّ من بعدها هداية، وتعلُّم حكمة، ولن تتضح مشكلة البحث ما لم يلمَّ الباحث بفلسفة الموضوع الذي يود دراسته، وتتَّضح فلسفة البحث بإجابة الباحث عن السّؤال لماذا هذا الموضوع بالذَّات؟ ولماذا لم يختر غيره؟

الثانية: بعد أنْ يحدّد الباحث موضوع بحثه يجب عليه الانتباه لما ينبّه إلى نقاط الضّعف التي وقع فيها من سبقه من بحاث في مضمار تخصُّصه حتى يعرف عن بيّنة كيفيّة تفاديها لو واجهته في أثناء تجميعه لمعلومات بحثه، أو في أثناء تحليلها، أو في أثناء تشخيص الحالة وتفسير النتائج، ومن خلال مراجعة البحوث والدِّراسات السَّابقة بوعي وانتباه قد يكتشف الباحث أنَّ الذي سبقه لأحد المواضيع لم تكن نتائج بحثه صادقة لفقدانها العلاقة بين أهدافها أو فرضياتها ونتائجها، أو أنَّ الخطوات التي اتبعها الباحث لا تؤدّي إلى النتائج المتوصّل إليها نتيجة لتحيز الباحث، أو لخطأ قد وقع فيه وهو لا يدري، أو أنَّ النتائج المتوصّل إليها والموصي بها قد تم بطلانها بنتائج بحث آخر جديد، أو

[12] الجمعة، 2.

أنَّه يكتشف أنَّ النتائج مخطئة؛ لتناقضها مع القوانين الطبيعيّة والاجتماعيّة أو الفروض التي صيغت لها من قِبل الباحث.

ونظرًا للتطوّر والتغيّر المستمر فإنَّه من الممكن أن يتمّ التعرُّف، أو أن يُكتشف أنَّ بعضًا من البحوث السَّابقة متضمِّنة لخطأ، أو أنَّها قد وقعت في فخِّهِ؛ فالتقدّم العلمي والتقنيات الحديثة ساعدت وتساعد على إعادة بعض الدِّراسات السَّابقة من أجل تصويبها وتطويرها، ونظرًا لأنَّ العلوم تربطها علاقات مع بعضها البعض وبمختلف تخصصاتها ومجالاتها وميادينها؛ لذلك يكون للاطلاع العام أهميَّة تفيد الباحث في استكمال جوانب بحثه، وتهيئ لبحثه مكانًا مرموقًا بين البحوث.

وبناء على ما تقدَّم: على الباحث أن يميِّز بين ما تدلّ عليه المفاهيم العلميَّة، وما تدلّ عليه تلك الفروض والقوانين التي تحتويها النَّظريات، وعليه أن يعرف أنَّ المفاهيم لا تضيف الجديد، ولكنَّها تُسهم في تحليله جيدًا، أمَّا النَّظريات فهي التي تُحفِّزُ على التحليل وتُمكِّن من التفسير العلمي للظواهر.

استطلاع الدِّراسات السَّابقة يُصحّح المعلومة:

الاستطلاع جهد علمي منظَّم يبذل عن دراية وقصد لمعرفة المعلومة المتنوّعة في بيئات مختلفة وأزمن مختلفة؛ ولهذا فالمعلومة دائمًا خاضعة للتقييم والتقويم العلمي، وهي دائمًا في حاجة للتقصّي

والاختبار، ولا تعدّ المعلومة مسلّمة إلّا بعد التبيّن، ومن هنا فكثير من المعلومات تحتاج إلى معلومات تُصحّحها.

وتصحيح المعلومة الخاطئة يستوجب توفّر معلومة صائبة، والمعلومة الصّائبة تتطلّب لسان حقّ لقولها، ومستمعًا منصتًا لها بكلّ اهتمام، وحَكمًا بها يفصل بين النَّاس؛ ولذلك فالقاعدة المنطقية والعلميَّة تنصُّ على أنّ:

. المعلومة متأرجحة بين صائبة وخاطئة.

. المعلومة تصحّح بالمعلومة.

. المعلومة السّالبة انحرافية.

. المعلومة الموجبة بنائية.

. التصحيح وجوبي.

ولأنّ الانحراف نتاج معلومات خاطئة.

إذن: الإصلاح في حاجة لمعلومات صائبة.

ولهذا؛ وجب العلاج بتصحيح المعلومات التي جعلت من المنحرف منحرفًا، ومن المخطئ مخطأً؛ وإذا لم تُصّحح المعلومات الخاطئة، يصبح المجتمع مهددا بتفشي الانحرافات والأخطاء.

ولأنَّ الإصلاح في حاجة لمعلومات صائبة، فينبغي أن تَحِلّ المعلومات الصّائبة محلّ المعلومات الخاطئة، ثم تُدعم المعلومات الصّائبة

بأخرى أكثر صوابًا حتى يتمّ تثبيت القول الصّائب، والفعل الصّائب، والسّلوك السليم الذي ينال التقبّل والتقدير من الغير.

ولأنَّ كلّ شيء ممكن، ولا استغراب، ولا يأس إذن: وجب على البحَّاث التبيّن قبل إصدار الأحكام، وعليهم بعدم المكابرة عن التصويب إن اكتشفوا أنّهم كانوا من المخطئين، أو بعض من سبقهم كان من المخطئين، وعليهم بالمعرفة الواعية حتى لا تجرّهم العاطفة وينقادوا وراءها إلى حيث ما لا يجب، وعليهم أن يميّزوا بين المعلومات الصّائبة والمعلومة الخاطئة؛ لأنّ:

– المعلومة الصّائبة في دائرة المتوقّع تُظهر القوَّة البنائية والأخلاقية والإنسانية والإصلاحية والوقائية والعلاجية والاستثمارية، وتُقدّم الحقائق هي كما هي، ويترتّب عليها الفعل المرضي الممكّن من التسامح.

. المعلومة الخاطئة في دائرة المتوقّع، تُظهر القوَّة الهدّامة، والمؤذية، والمؤلمة، ولا تُقدّم الحقائق هي كما هي عليه، فيترتّب عليها فعل النّدم. ولهذا؛ ينبغي على الإنسان:

– أن يُمَيِّز بين ما هو ظاهر، وما هو كامن.

– ألَّا يغفل عن الكبيرة ولا الصّغيرة في دائرة الممكن.

– ألا يستغرب الأقوال والأفعال والسلوكيات حيث كلّ شيء ممكن.

– أن يُدحض الحُجَّة بالحُجَّة.

– أن يحافظ على اتزانه وتوازنه أمام المعلومة الخاطئة وأمام الأفراد.

ولهذا إذا تمت معالجة المعلومات والأفكار الخاطئة أو المنحرفة بمعلومات وأفكار سوية صائبة، يتغيّر أصحاب الاتجاهات السَّلبية إلى الاتجاهات الموجبة، ومع أنَّ أساس المعلومة الصّواب، ولكن النَّاس هم الذين حادوا بها عن مقاصدها ومراميها، ومن ثمّ أصبحت المعلومة المشوّهة السبب في تشويه الحقيقة؛ ولهذا عندما يتعلَّم الإنسان فكرًا معوجًا سيسلك سلوكًا معوجًّا، وإذا تعلَّم فكرًا صائبًا فيفترض أن تصبح معارفه وسلوكياته صائبة[13].

وعليه:

فإنَّ استطلاع الدِّراسات السَّابقة يُمكِّن من الوقوف على الحقيقة كما هي في السَّابق (الماضي)، ثمَّ يمكِّن من كشف علاقاتها مع متغيرات الزَّمن الآن (الحاضر).

استطلاع الدِّراسات السَّابقة يمكن من المجهول:

المجهول هو ما لم يكن معلومًا بعد، ممّا يستوجب البحث من أجل كشفه والتعرّف عليه؛ ليكون إضافة جديدة للمعارف والعلوم السَّابقة؛ فينبغي على البحاث إنْ أرادوا معرفة المجهول، أنْ يصوغوا له

[13] عقيل حسين عقيل، العفو العام والمصالحة الوطنية، ص 162 . 176.

تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنون فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها، فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

أمَّا التساؤلات، فهي أسلوب بحثي معمّق يمكّن أصحابه من معرفة الجديد المجهول: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}[14]؛ فقوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ!) هو تساؤل، ولم يكن سؤالًا، ولم يكن استفسارًا؛ ذلك لأنّ السّؤال دائمًا يلاحق إجابة سابقة عليه، بهدف إعادتها ثانية، أو أكثر من ذلك، وكذلك الاستفسار لا يكون إلّا عابرًا ومن العموم، أمَّا التساؤل، فهو يستوجب بحثًا علميًّا، وتقصٍّ دقيقٍ من أجل معرفة المجهول.

ولأنَّ في الآيات السَّابقة كان المشركون يتساءلون عن المجهول؛ فكانت المعلومة من العليم، أنَّ ما تختلفون فيه، هو: النبأ العظيم الذي يتنزّل تنزيلًا، أي: إنَّ المشركين كانوا يعتقدون أنَّ ما جاء به مُحمَّد عليه الصّلاة والسَّلام لا يمكن أن يكون منه، وهنا كانت علامات الاستغراب تدور في أنفسهم كما تدور بينهم وهم يتساءلون؛

[14] النبأ 1 . 5.

فأنزل الله المعلومة حُجّة: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)، وستكون الشواهد على ذلك متوالية، وسيعلم الكفار بذلك شواهد دالة على أنّه الحقّ المنزّل: (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)، أي: إنّ المعجز إنْ تمَّ الاستفسار عنه فلا يبلغ إلّا تنزيلًا، أمَّا الممكن فلا يبلغ إلَّا بحثًا معمّقًا.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلميَّة؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة إلى ما هو مستحيل؛ فالشّطحات عندما تكون موضوعية فهي تمكّن من معرفته، وإن قصرت عن معرفة الكيفية التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية، فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي أن يتمكّن الإنسان من معرفته وإدراكه.

ولذلك؛ فاستطلاع الدِّراسات السَّابقة يُمكّن البحاث من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنهم من تجاوزه ارتقاءً، ومن ثمّ، إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة فلا ينبغي أن توضع إشارة قفّ أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع؛ فينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنَّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزًا، وحينها ندرك أنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقّع.

ولأنَّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاءً، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني والذوقي: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[15].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنَّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان مطلبًا ورغبةً واختيارًا؛ ولذلك؛ ينبغي أن يعمل البحَّاث كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة العلميَّة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاءً.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا، ولأنّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازًا؛ إذ لا إمكانية لخلق الشيء شيئًا إلّا بمشيء.

---

[15] الكهف 88.

استطلاعُ الدِّراسات السَّابقة يُفطن الذَّاكرة:

تعدّ الذّاكرة مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، وهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني، وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاءً؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه وإلى من سبقه، وبما سبقه به، ومن ثمَّ تيسّر له مشاهدة الآخرين وملاحظة ردود أفعالهم تجاه الغير.

ولذا؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة، ويخضعها للتقييم قبل أن يستدعي الدِّراسات السَّابقة بحثًا وتقييمًا، أي: ينبغي أنْ يقيّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين وما تركوه من دراسات سابقة، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط السَّالبة، ثمّ يعمل على التصحيح.

أي: عليه أنْ يتحدّى عقله تفكيرًا حتى يدرك أسرار نفسه وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوَّة البصيرة بقوَّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا؛ فالفكر ارتقاءً

يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميَّتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة لكلّ مأمول نافع، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العِظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي الارتقاء فكرًا وعلمًا ومعرفةً وخُلقًا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود البحَّاث والمنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرًا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة الجَادَّة والعاملة والمتطلّعة أملًا وارتقاءً.

ومع أنَّ الذَّاكرة حافظة، ولكنّها قابلة لأنْ توسَّع معرفةً، وتُنشّط تذكّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الدِّراسات السَّابقة ومعرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرًا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيًا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا؛ إذ لا إمكانية للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره، وأمر من تربطه به

علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل؛ إذ لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقًا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ يُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[16]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجَّة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي بينهم اختلافًا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ الكثير من المشاكل تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو

[16] البقرة 33.

بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به حتى لا يتكّرر المؤلم الذي تناولته الدِّراسات السَّابقة بالبحث العلمي، وبالتالي يصبح الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُّفلية ومؤدّيًا إلى ارتقاء مأمول.

فالذاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي، فالتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها، فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكل أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذكرة للدراسات السَّابقة فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث، فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولًا مهمة، إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير

متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحقِّقًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت، فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذاكرة وعيًا ويقظةً.

ومع أنَّ في الذاكرة يدخل الماضي حقل التراث، ولكنّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيرًا على مر العصور، فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح في الذاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجر إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات، فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرًا حتى في القضية الواحدة؛ إذ تحكمه الكثير من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عند حدٍّ معينٍ؛ فيكون الارتماء ممثّلًا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها، فتنساق الأمور في الذاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلّا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها؛ ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول، فالذّاكرة تحمل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية

التي يمكن أن تطرح على أيٍّ صعيد، فلم يكن هناك حلٌّ واحدٌ لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من أطروحات؛ ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلّل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي، ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسًا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان؛ ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تنشيط ملكة التدبّر، ولفت انتباه ذاكرة التذكّر، وتمرين ذاكرة التفكّر.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ من حيث إنّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلة ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السير في هذا الرّواق منكفيًا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة؛ كونها تمثّل امتدادًا مطلوبًا[17].

[17] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 . 127.

استطلاعُ الدِّراسات السَّابقة يُمكِّن من المأمول:

المأمول هو الباعث الذي ولّده الأمل فكرة حتى أصبح شيئًا يتم بلوغه ونيله؛ ولأنّه مولود الفكر فهو للآملين مثل الوليد للآباء رعايةً وعنايةً، وحرصًا وعملًا جادًا فتحشّد الإمكانات وتبذل الجهود من أجل بلوغه ثمّ نيله والحفاظ عليه حفاظا على مولود من الأصلاب، دون أن يوقف الإنجاب من بعده، فالابن دائمًا في حاجة لأخوة، والآباء في حاجة للأبناء رحمة، وهكذا المأمول يتولّد من الدِّراسات السَّابقة كما يتولَّد من الفكرة والمشاهد مأمولًا من بعده مأمول.

والمأمول لا ينجبه الانتظار، بل ينجبه الفكر المنظّم والعمل الجاد؛ فالانتظار لا عمل، ولا عمل يساوي نتيجة صفريَّة؛ ولهذا فالمأمول لم يكن المنتظر، بل المتوقّع كما هو، فإذا جعلنا المأمول منتظرًا، فلا داعي للعمل؛ فهو المتوقّع الذي حُددت الأهداف من أجله، وَوَضَحت الأغراض والغايات من ورائه، ورسمت الخطط والاستراتيجيات المؤدية إلى نيله، وتمت العودة إلى الدِّراسات السَّابقة من أجله.

ولأنّ المأمول لم يكن المنتظر؛ فهو أيضًا لم يكن المرتجى، فالمرتجى لا سبيل لبلوغه إلّا من خلال الغير الذي قد لا يستجيب لمطلب ولو توسّل المتوسّل، أمّا المأمول فلا انتظار ولا توسّل إلّا لله تعالى، إنّه الاعتماد على النفس والإمكانات المتاحة، والتي يمكن أن تتاح إرادة ورغبة وضرورة.

والمأمول لم يكن الجهد المبذول، بل ما يبذل من الجهد من أجل نيله: (إنَّه المترتَّب على الجهد الذي أنتجه شيئًا ملموسًا) فالفلّاح على سبيل المثال: يحرث ويزرع وأمل الحصاد لا يفارقه، ولسائل أن يسأل:

لِمَ لا يكون الحصاد مأمولا؟

أقول:

الحصاد جهد يبذل، وهو أمل الفلاح، أمَّا مأموله فهو أن ينال إنتاجًا وافرًا؛ فإن كان وفيرًا نال مأموله، وإن كان غير ذلك فسيكون موسمه درسًا لمواسم أكثر أملًا.

وعليه:

الأمل يحرّك الآمل ويدفعه، ونيل المأمول يطمئنه ويحفّزه على المزيد؛ فالآمل لا يقنط، والحياة الدنيا بالنسبة إليه مدرسة يجب أن يكون فيها ناجحًا ومتميّزًا إن أراد أملًا أعظم في حياة أعظم.

المأمول وإن صعب نيله، فنيله ممكن، شريطة القيام بعملٍ موجبٍ مع صبر على بذل الجهد والمثابرة، ثمّ تحدّي الفشل، مع العلم أنّ الفشل لا يكون إلّا بأيدي اليائسين، ولا يكون إلّا عن إرادة منهزمة لشخصية لا تقبل التحدّي، وهذا لا يعني: أنَّ المأمول صعب المنال، بل يعني فقدان العزيمة (تصميمًا وإصرارًا) على حياة أفضل، والعزيمة لا تمنح، ولا تشترى، بل هي تستمدّ من العقل الذي يفكّر

في أمره وتحسين أحواله وضمان مستقبله، وهذه لا تكون إلّا بيد العقلاء. فمن له عقل لا يليق به إلَّا يستثمره ويوظفه فيما يفيد شخصه ومن لهم علاقة به؛ فالذي اختار أمله غزو الفضاء، قد اختار الصّعب تحدّ، فبلغ الفضاء غزوًا ومأمولًا، ومن ثم ثبت لنا أنّ الصّعب لا يصمد أمام المتحدّين، أي: إنَّ الصّعاب لا تستسلم إلّا على أيدي المتحدّين؛ ولذا فلم لا نتحدّى؟

المأمول مع أنَّه باعث خارجي (خارج الفكرة) لكنّه لا يكون إلّا خلقًا أي: خلق (الشيء ولا شيء)، أو أن يكون مولود الفكرة؛ فعقل الإنسان لو لم يفكّر ما أنتج الفكرة، ولو لم يكن مستبصرًا لما سبق ولما يجري من متغيرات ما ولّد من المشاهد فكرة، وما ولَّد من المعرفة الجاهزة معرفة مضافة.

المأمول يتعدّد ويتنوّع وفقًا للحاجة والمطلب، وهو لا يُبلغ إلّا عن إرادة وجهد يبذل مع القبول بدفع الثَّمن، وقد يكون المأمول خاصًّا وفقًا للحاجة والشهوة وهو كثير، وقد يكون عامًّا كونه مأمولًا عظيمًا، وكلّ مأمول عام فيه منافسة، وقد يكون عليه الصِّراع، فرئاسة الدّولة مأمولة عند الكثيرين، والمنافسة الحرّة وفقًا للدستور وحدها الحاسمة، ولكن لا يمكن أن يكون رئيس للبلد إلّا فائزًا واحدًا؛ ومع ذلك البعض قد يحترم نتائج الدستور والبعض لا يحترمها؛ فتنقلب المنافسة الحرّة إلى صراعٍ دامٍ، وهنا تكمن العلّة، وقد تحدث الانقلابات على الدساتير كرهًا، وهذه في معظمها أساليب لا تُحترم عند أهل الثَّقافة.

ولأنَّ الانقلابات لا تكون إلّا كرهًا؛ إذ لا دستور، فهي تحمل عناصر فنائها فيها ممّا يجعل بعد كلّ انقلاب انقلابات.

والتعليم مثال آخر على المأمول العام: فهو مع أنَّه عامّ، لكنّه لا يكون على حساب أحد، وفيه يتنافس المتنافسون.

أمّا الفوز بالجنَّة فيعد المثال الأعظم للمأمول العام، ومع أنَّها مأمول عام، لكنّ بلوغها والفوز بها لا يكون إلّا خاصًّا؛ لأنَّ نيلها نيل مكانة، مكانة تستوعب الجميع دون أن يكون أحد على حساب آخر، وهنا لا مقارنة بين مكانة رئاسة الدَّولة التي لا تشغل إلّا مفردة، ومكانة أعظم تستوعب ما خلق مأوى ونعيم ومتعة، قال تعالى: {يَا قَوْمِ اعملوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}[18].

ولهذا فالجنّة مأمول ولم تكن أملًا، فالأمل مولود الفكرة، أمّا الجنَّة فخلق الخالق، وهي متاحة لمن يشاء ويعمل من أجل نفسه ونيلها فوزًا مع الفائزين.

ومع أنَّ المأمول عام (الجنَّة)، فإنَّ نيله لا يتمَّ إلّا بجهد خاصّ؛ لأنَّ العلاقة بين المخلوق المجازَى بها والخالق المجازي بها علاقة خاصّة.

أمّا إذا كان المأمول عامًّا والمطلب أيضًا عامًّا؛ فالمثال الذي يمكن سوقه افتراضًا: أنّ دولة ما قد تمّ احتلالها من الأجنبي، ففي هذه الحالة لن يكون لمواطنيها مأمول إلّا تحريرها، ومن هنا يصبح المأمول

[18] الأنعام 135.

العام مطلبًا عامًا؛ ولا أمل للشعب كلّه إلّا تحرير وطنهم فيعملون كلّ ما هو ممكن حتى يتحرر كما أملوه مأمولًا.

وهناك ما يماثل هذه الأمثلة، من حيث إنَّ المأمول جمعيًّا والنوايا فرديَّة؛ كالقيام بفريضة الحج المأمولة من المسلمين، غير أنَّ تأديتها لا يؤسّس إلّا على النيّة، وهذه لا تكون إلّا فردية وكأنَّ الفرد حاج بمفرده، فينوي بنفسه حجًّا، ثمّ يتقدّم مع الحجيج لأداء الأركان الأخرى، ومن هنا يندمج الأنا في الذات العامّة.

ولسائل أن يسأل:

أين الأمل في هذه المثال؟

أقول: الأمل: تلك الحيويّة التي هيأت المسلم لإعداد العدّة استعدادًا وتأهبًا حتى قام بأعمال الحج، وناله من بعد غاية.

والآمل: المسلم المقدِم على أداء فريضة الحج.

أمّا المأمول: القيام بالفريضة على أتم وجه.

فالحج مع أنَّه مأمول عظيم لدى المسلمين؛ لكنّه يعد عملًا يجب القيام به من أجل مأمول أعظم، (الجنَّة) حيث النعيم الدّائم، أي: إنَّ المسلمين يميزون بين النعمة والنعيم؛ فهم يعرفون أنّ الدُّنيا بيت النعم المتعدِّدة والمتنوِّعة، وأنَّ الآخرة بيت النعيم الدّائم.

وللتمييز: النعم فيها الأذواق تتعدد وتختلف وتنقطع، أمّا النعيم لذة دائمة لا تنقطّع، ولا يختلف عليها ولا يتخالف. أي: إنّ الجنَّة فيها النعيم بذاته، أمّا الدُّنيا فيها النِّعم تتحوّل فضلات.

وهنا الفرق كبير بين النعيم لذة لا تنقطع ولا تنقص ولا تنتهي ولا يتعفّن نعيمها، وما يترك زبالة تشمئز الأنفس من رائحتها النتنة.

وعليه: فإنّ المأمول المطلق: الفوز بنعيم الجنّة، أمّا ما دونه فهي مأمولات في دائرة الممكن؛ ولهذا فالمأمول هو: المقصود في ذاته دون سواه، ليتم نيله استجابة لأمل عن رغبة، سواء أكان نسبيًّا أم مطلقًا.

والمأمول لا يكون إلّا معلومًا، والقصد إليه ثابتٌ، وإن أخذ العمر كلّه، فالمهم أن يبلغ وينال؛ ومن ثمَّ فساعة نيله وكأنّه لم يقض ما انقضى من وقتٍ، وساعة نيله وكأنّه كان غير متوقّع بالرّغم من توقّعه.

وعليه فالمأمول:

. لم يكن خيالًا مجرّدًا.

. نتاج العمل الجاد.

. يتم نيله والفوز به.

. يفتح آفاقًا جديدة أمام الآملين.

وعلى الآملين:

. التفكير الجاد؛ حتى يولّدوا من الفكرة فكرة.

. التعلّم؛ حتى يتعلّموا كيف يتعلّمون.

. أنْ يرفضوا؛ حتى لا يكون الرّفض غاية.

. أنْ يتقبّلوا دون أن يكون التقبّل مذلّة.

. أن يحترموا؛ حتى لا يصبح الاحترام جبنًا.

. أنْ يتفهّموا ظروف الغير دون أن يجعلوا مأمولاتهم على حسابهم.

. أن يتكلّموا دون أن يصبح الكلام ثرثرة.

. أن يستوعبوا قبل أن تخلط الأوراق.

. أن يحاججوا؛ كي لا تتسع دوائر التُبّع.

الأملُ استطلاعًا:

الأمل ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه بلوغ المأمول ثم نيله، والآمال هي المرجوة بلوغًا ثم نيلًا، سواء أكانت بحثًا علميًّا أم عملًا أو أيّ مقصد من المقاصد المعلومة؛ ولهذا تحدد لها الأهداف لتكون مرشدة لمراميها.

فالآمال تحدّد لها الأهداف وفق الإمكانات المتاحة من قبل الذين يأملون إنجاز ما يمكن إنجازه علمًا أو معرفة أو بناءً وإعمارًا وصناعة مستقبل، وهي لا تكون محدّدة إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما

يجب الإقدام عليه، ومن ثمَّ فاستطلاع الدِّراسات السَّابقة يمكِّن من وضوح الرؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه بحثًا علميًّا، وبخاصَّة عندما يضع البحَّاث المختلفين منهجًا وطريقةً وأسلوبًا وتخصُّصًا ورؤيةً نصب أعينهم أهدافًا (قابلة للإنجاز)، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاءً، وآمال رفيعة يتم نيلها.

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقًا لأملٍ مشترك يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة حيث لا أمل، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاءً، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة، فالأمل الرّفيع يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاءً تذكّر؛ فاتّعظ واعتبر، ومتى

ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافًا من ورائها أغراضًا، والغاية من ورائها القمّة مأمولة.

وعليه:

إنّ تحديد الآمال مثل تحديد الأهداف يُمكّن من إنجازها بنتائج وحلول موضوعية، ويوجّه الباحثين إلى ما يمكن إنجازه دون إضاعة للوقت أو الجهد، ودون أيّ إهدار للإمكانات، وهي تلفت الباحثين والعاملين على إنجازها إلى أهمية الموضوع أو القضية التي يأملونها ويضحّون من أجلها. ولهذا:

وضوح الأمل يؤدّي إلى وضوح الرّؤية.

. غموض الأمل لا يؤدّي إلى بلوغ المرضي.

. تحديد الأمل يمكّن من التدبّر.

وعليه:

. ولّد في نفسك وعقلك أملًا من ورائه مأمولات.

. تبيّن أملك قبل الإقدام على العمل.

. ثق أنَّ الآمال تُنال؛ فلا تتأخّر عن البحث والعمل إقدامًا.

وإذا أراد بنو آدم عدم الجلوس على أرصفة البطالة والمتسوّلين؛ فعليهم بصناعة الأمل وتوليد الآمال منه، ثمّ وجب عليهم حُسن التدبّر مع أخذ الحيطة والحذر؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن

الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة ومن ثمّ نيل المأمول.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من صنع الأمل والمشاركة في العمل المنتج، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، وتحقيق الأغراض الرّفيعة، وبلوغ الغايات العظيمة، ونيل المأمولات قمّة؛ ولهذا فاستطلاع الدِّراسات السَّابقة يجنب الوقوع في المخاوف والانزلاق في تكرار الأخطاء.

ومن ثمَّ فالآمال ليست أمنيات، بل هي المرشد الحقيقي للباحثين في ميادين البحث العلمي، والسّاعين إلى الارتقاء مهنةً وعلمًا ومعرفةً وإنتاجًا وحرفةً؛ ولهذا فلا يمكن أن تنجز المهام والأعمال والخطط والاستراتيجيات على أيِّ مستوى من المستويات الفردية والجماعية والمجتمعية، وأيّ مستوى من المستويات السياسية والاقتصادية والمعرفية ما لم تحدد لذلك آمال عريضة تحتوي أهداف قابلة للإنجاز، ومأمولات قابلة لأنْ تصبح شواهد.

وعندما تُصنع الآمال، وتحدّد الأهداف، تصبح رؤية الآملين واضحة المرامي والأغراض، وفي المقابل من لا يتمكّن من صنع آماله وتحديد أهدافه أو رؤيته أو سياسته؛ فلن يستطيع أن ينجز شيئًا يمكن أن يكون على الأهمية المأمولة.

وعليه:

. الآمال العظيمة ليست أمنيات الكُسالى، فهي تحمل في أحشائها حيويّة تدفع تجاه نيل المأمولات الرّاقية.

. الآمال العريضة لا تصنع إلّا من قِبل الجادّين.

. الآمال لا يقودها إلّا آمل وإن استعان بمن استعان.

. الآمال تهدي الآملين إلى مأمولاتهم وترشدهم إليها مثلما تهدي المنارات سفن المبحرين.

. الآمال لا تتولّد في العقول إلّا من قِبل القادرين على نيلها أو الفوز بها.

. يعد تحديد الآمال خرقًا لما كان يظن أنّه صعب المنال.

. يعد إنجاز أوّل أمل أكبر لبنة لبناء المستقبل المأمول.

. تحديد الآمال لم يكن غاية في ذاته، بل الغاية طي الهوة بين الآمل والمأمول؛ لأنّ بلوغ الغاية وطي الهوة يفتح آفاقًا جديدةً لتوليد آمال جدية لم تتولّد إلّا من بعد مأمول تمّ نيله.

ومع أنَّ البداية تكون الصّعوبة، ولكن في النّهاية لا تعد استحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عملية التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ، والآمال تُنال.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، والأغراض وتحقيقها، والغايات وبلوغها، والمأمولات ونيلها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أوّلا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها؛ ولهذا فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثمّ من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ومن ورائها مأمولات أعظم، ولهذا، لا ينبغي أن تكون أهداف الآمل غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها ما يحقّق الرّفعة (نيل المأمول ارتقاءً).

ولهذا فإنَّ قاعدة صنع الآمال وتوليدها مؤسّسة على وجوب نيل المأمولات، وإلّا لا داعي لصنعها وتوليدها؛ فكلّ ما نال بنو آدم مأمولًا ينبغي أن يكون من ورائه مأمول أهم، ثمّ من ورائه مأمول أكثر أهمية، ووراء كلّ مأمول غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل

تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية مأمولة، ومن هنا يجب استطلاع الدِّراسات السَّابقة حتى لا يحدث التكرار.

في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يصنع له أملا، ولكنّه لا يعمل على نيله وكأنّ صنع الأمل هو المأمول في ذاته؛ وكذلك هناك من يصنع له أملًا ويعمل على إنجازه دون أن تكون له آمال عريضة من بعده، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها.

إذن: ينبغي على بني آدم عند استطلاع الدِّراسات السَّابقة وكذلك عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ أمل غرضًا من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة؛ ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وألم، وهنا يكمن الانحدار علّة.

وعليه:

. إنّ تحديد الآمال ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه نيل المأمول.

. من يحدّد آماله غاية ليس له من نتيجة إلّا الفشل.

. توليد الآمال يولّد آمالا جديدة في عقول الجادّين.

. لا يولّد الأمل من الأمل إلّا ومن ورائه غرض، ومن وراء الغرض غاية من ورائها مأمول؛ ولهذا فكلّ غرض يتحقّق من ورائه غاية، وكلّ غاية تُبلغ من ورائها مأمول يفتح آفاقًا أمام مأمول أعظم.

. تصنع الآمال وفقًا لمتغيرات بيّنة، ولكن الآمل لا يقتصر عليها؛ فهناك من الآمال ما يصنع في دائرة غير المتوقّع بما يمكّن من إنجاز المفاجئ.

ولذا؛ فكلّما تمّ نيل أمل، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف آمالٍ من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً، أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاءً وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا لآمال يتم نيلها، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب، فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاءً، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين أملًا وارتقاءً.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة، ونيل المأمول رفعة، فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلًا، واحترامًا،

وتقديرًا، واعتبارًا، واستيعابًا، وتفهّمًا، وتدبّرًا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه رفعة.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من ورائه آمال، ولكن في المقابل هناك من يهدّم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّمه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا والهادمين له انحدارًا ما لم يضع الجميع نصب أعينهم آمال قابلة لأن تنال.

استطلاع الدِّراسات السَّابقة استيعاب معرفة:

لا شكَّ أنَّ حاضر البحث العلمي لا يعد نقطة البداية الصّفريَّة؛ ولهذا وجب العودة إلى ما سبق بغاية تأسيس الحاضر على الحُجَّة التي تحتوي السَّابق هو كما هو (سالبه وموجبه)؛ ذلك لأنَّ السَّابق البحثي منبع من منابع الأمل التي يأمل البحاث تيسيرها بين أيديهم، ليتمّ من خلالها التعرُّف على مكامن العلل التي كشفها السَّابقون، ومكامن العلل التي قصرت جهودهم البحثية عن كشفها وحان الوقت للتوجّه إليها بالبحث بعد أن توفّرت تقنيات البحث المتطوِّرة حديثًا.

ومن ثمَّ فاستطلاع الدِّراسات السَّابقة يعدُّ احترامًا وتقديرًا لجهود السَّابقين، من خلال بث روح الحداثة في جهودهم البحثيَّة،

وربطها بما كان مأمولًا بالنسبة إليهم بعد أن أصبح ميسّرًا في الزَّمن الآن، مع تقدير ما كانوا فيه مختلفين.

إذن: الاستيعاب قيمة احتوائية، يُمكِّن من:

استيعاب السّلبيات، وتحديدها، وإبراز عللها، وأسبابها، والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

– استيعاب المختلف والمخالف، واحتواؤهما دون انحياز، ولا عصبيّة، انطلاقًا من أنّ الفروق الفردية بين النَّاس هي مكمّلة لبعضها البعض.

. استيعاب المختلف والمخالف يمكّن من التفاهم، والتفهّم، ومن ثمّ يمكّن من تقويم الأحوال من أجل ما يجب.

. استيعاب المختلف والمخالف ينهي التأزّمات، والآلام، والأحقاد والمظالم، ويمكّن من تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة.

. استيعاب المختلف والمخالف يجعل الأنا والآخر في دائرة (نحن معًا).

. استيعاب المختلف والمخالف يمكّن من توليد القوَّة، وجمعها وتسخيرها لما يفيد، وتوجيهها إليه.

وعليه:

يجب أن يكون استطلاع الدِّراسات السَّابقة بلا تردّد، وتقبّل ما جاء فيها حتى وإن كان ما جاء فيها من وجهة نظر الحاضر قاصرًا، وهذا الرَّأي لا يعني الأخذ بما جاء فيها، بل يعني وجوب كشف العلل التي جعلتها قاصرة، وتبيان الأسباب التي مكّنت من تجاوزها من أجل البحث عمَّا يكون أكثر تيسيرًا للمزيد العلمي والمعرفي وحلّ المعضلات والمشاكل الآنيَّة.

إذن: الاستيعاب مبدأ قيمي يُمكّن من إنجاز الصّعب في دائرة الممكن، وهو الممكِّن من الوقوف على نقاط التمركز والتشتُّت التي تجعل العلوم في حالة تطوُّر، ممّا يستوجب الأخذ بنقاط الالتقاء واعتمادها جزءًا من الحلّ، ونقاط الاختلاف واعتماد تجنّبها جزءًا من الحلّ، فالإلمام بالحالة أو المشكلة، وظروفها المتنوّعة، والمتغيّرة، والمتباينة، والمتصادمة، يُمكّن الجميع من معرفة العلل، والأسباب مكامن الإصلاح والحلول، حيث لا حلّ إلّا وهو نابع من عِلةٍ، أو سببٍ.

النَّظريات والدِّراسات السَّابقة:

تعد النَّظريَّات المصدر الأساسي للقوانين الطبيعية والاجتماعية والإنسانية التي من خلالها يتمُّ تأصيل المواضيع وإمدادها بقوَّة الحُجَّة وكذلك البراهين والسند العلمي الذي به تحلل المعلومة وتُشخَّص الحالات قيد البحث والدِّراسة؛ ولذا فالبحَّاث الموضوعيّون يتّجهون إلى سبر أغوار النَّظريات؛ ليستمدوا منها حُجَّتهم العلميَّة.

وعليه: ينبغي أن يستطلع الباحث الدِّراسات السَّابقة ولا يغفل عن استعراض النَّظريات الرَّئيسة التي سبق وأن نظَّرت للظاهرة التي يتولّى الباحث متغيرًا من متغيراتها بالبحث وفقًا للظّروف الخاصَّة بالحالة ومبررات ظهورها في الزَّمان والمكان المحدَّدين للبحث أو الدِّراسة.

ولذا عندما تكون مشكلة البحث متعلّقة بظاهرة انحرافية فعلى الباحث أن يعود لتلك النظريَّات التي تناولت هذه الظاهرة تنظيرًا وتفسيرًا حتى يتعرَّف على القوانين التي تتحكم فيها، أو التي تُظهرها إن لم يراع المجتمع تجنُّب معطيات أكدت النظريَّة عليها وصنفتها من العلل التي إذا ما توفَّرت شروطها أظهرت السُّلوك الانحرافي بين الشباب، أو المراهقين، أو أيّ مرحلة من المراحل العمريَّة التي بيَّنتها تلك النَّظرية الاجتماعيَّة أو النفسيَّة أو السُّلوكيَّة أو الطبيعيَّة.

وعلى الباحث ألَّا يغفل عن القوانين التي تأسسّت النَّظرية عليها، والتي بها تُأصَّل البحوث، وبها تقلَّب متغيّرات تلك الدِّراسات السَّابقة.

ومن هنا فرجوع الباحث إلى النَّظريات يمدَّه بالحُجَّة (القانون) التي عندما تحلَّل القضايا على أسسهما تكون خير ساندٍ لِما يُكتب، أو لِما يُبحث فيه، أو يُبحث من أجله.

وبالعودة إلى تلك النَّظريات التي تناولت بالتنظير ظاهرة الانحراف يجد الباحث مسوَّغًا يستند إليه علميًّا في تناول متغيّرات بحثه

بالتقصي الدّقيق الذي يُمكِّنه من ربط العلّة بالمعلول، والسَّبب بالمسَّبب والسُّلوك الظَّاهر بما هو كامن في الصدور.

ولأنَّ للبحث موضوع فإذن لا مفرَّ من العودة إلى النَّظريَّات التي تُعد المصدر العلمي الذي يمدّ البحَّاث بالحقائق والقوانين التي تفتح آفاقُ المعرفة أمامهم في مجالات تخصّصاتهم ومتغيّرات بحوثهم؛ لِيَسبُروا أغوارها، ويكشفوا آثارها على المنحرفين والذين تربطهم علاقات بهم كالأسرة والعشيرة والجيران ورفاق التعليم ورفاق العمل، ومن يشترك معهم في تعليمٍ أو عملٍ أو أيّ حركةٍ وسلوكٍ.

وبالعودة إلى النَّظريَّات يتعرَّف الباحث على المعطيات التي على أساسها تمَّ تناول تلك القضايا والأفكار والفروض والقوانين، ويتمكّن من خلالها من معرفة ما يجب ألَّا يغفل عنه فيما يتناوله من بحثٍ أو استطلاع لدراسة سابقة؛ وبهذا يكون قد استطاع أن يربط بين القضايا والقوانين التي أثارتها النظريَّات وأهداف وفروض بحثه، ثم بإمكانه بعد ذلك أن يكتشف ما غفلت النظريَّة عنه بأسباب تغير المعطيات الزَّمانية أو المكانيَّة أو الثقافيَّة أو الدِّينيَّة أو العرفيَّة، أو كلّها مجتمعة أو بعض منها.

وإذا وصل الباحث إلى ذلك يُمكِنه أن يضيف الجديد، ويُمكِنه أن يكتشف القوانين، ويمكنه أن يصوغ النظريَّات كما سبقه غيره في ذلك من قبل.

ومع أنَّ هذا الأمر قد لا يكون هدفًا من أهداف الباحث، ولكنَّه في دائرة الممكن ممكنًا ولا استغراب؛ كونه في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع.

وبالعودة لتلك النظريَّات يستطيع الباحث الماهر أيضًا أنْ يعرف ما إذا كانت نظريَّة من النظريَّات صامدة، أم أنَّها بدأت تفقد شيئًا من معطيات صمودها، وبخاصّة إذا تمكَّن الباحث من إبطال قانونٍ من قوانينها.

ولأنَّ النظريَّات مكمن القيم والمبادئ والقوانين؛ لذا فلا يُقبل من الباحث أن يغفل عنها تحت مبررات قد تكون غير موضوعية، ومع ذلك ليس بالضَّرورة أن يكون تناول القيم والفضائل كما تناولته نظريَّة من النظريات في العلوم الاجتماعية، فالقيم مثل الحاجات دائمًا تتطوَّر ولكِّنها بكل تأنٍ وإرادة جماعيّة.

ومع أنَّ النظريَّات أمرها ليس هيّنًا إلَّا أنَّ في دائرة الممكن يتم توجيه الانتقادات إليها أو على شيء من صُلبها، وذلك وفقًا لقاعدة: (لا مطلق إلَّا من عند الله تعالى ومن غيره كلّ شيء في دائرة الممكن).

وعليه: تعد النظريات إطارًا مرجعيًّا للباحث يحتكم بها، ويحتكم إليها في كثيرٍ من القضايا والظَّواهر والمواقف والإشكاليَّات التي تجعل البعض بين مؤيدٍ ومعارضٍ، أو بين سويٍ ومنحرفٍ، فهي التي تمد الباحث بما هو طبيعي، أو متفقٌ عليه، أو أنَّه قانونٌ لا هروب

منه، أو لا هروب مما يترتَّب عليه من أعباء إن لم يؤخذ به، أو يؤخذ ببعض منه.

ومن ثمَّ فإذا كانت النظريَّات من مصادر الحُجج والفروض والقوانين المفسِّرة للظواهر الاجتماعيَّة والطبيعيَّة، ألا يكون من الأفضل أن يعود البحَّاث إليها ليؤصِّلوا بحوثهم ويحصِّنوها علميًّا، ثم ينطلقون منها إلى معرفة الحال في الزَّمن الحاضر ووفقًا للمتغيرِّات التي تحوطه من كل جانب، ثم من بعدها يمتدون إلى معرفة أثر المحيط الذي يلامسهم بالآخرين، وبعد تفحُّص وتتبّع ذلك يجب ألَّا يغفل الباحث عن أبعاد أهداف بحثه وفروضه العلميَّة التي يفترض أن تكون مستطلعة لدراسات سابقة ومتطلّعة إلى ما هو أفضل وأجود؛ لتسهم في صناعة المستقبل المأمول.

ولأنَّ النظريَّات مصادر علميَّة ومعرفيَّة تُسهم في تفسير التَّاريخ والسّياسة، والعلاقات الاجتماعيَّة، والإنسانيَّة، وكذلك تُسهم في تفسير الظواهر الطبيعيَّة، أَلَا يكون من الأفضل للباحث أن يعود إليها وألا يغفل عنها وبخاصّة إذا أراد أن يُعزّز رأيًا أو اتجاهًا أو موقفًا أو منهجًا؟ ومع ذلك لا يُقبل أن يتوقَّف الباحث عند حدودها، وكأنَّ الأبواب لا تفتح إلَّا بها، بل عليه أن يمتدّ إلى معرفة ما يخالفها إنْ وُجد، أو أنْ يبحث من أجل تطويرها وصوغ تساؤلات يمكن أن تولِّد الحيرة لدى نفسه، أو لدى غيره من البحَّاث، وإن ولَّدت ذلك تكون هذه التساؤلات قد فتحت أبوابًا للإضافة والمعرفة الجديد.

ولأنَّ النظريَّات لا تقتصر على ما نعرفه، بل هي مصادر إمداد لمن أراد أن يبحث ويتعرَّف، فلِم لا تكون مراجعاتها، وتقصي أبعاد ما تشير إليه مادّة علميَّة بين أيدي البحَّاث من أجل صناعة مستقل أكثر تقدُّمًا من تلك النظرة التي على ضوئها صيغت تلك النظريَّات؟

فهذا بالنسبة إلى من أراد أن يبحث ويطوِّر، أمَّا بالنّسبة للباحث الذي يعود إليها من أجل أن يُحصِّن نفسه وبحثه من الانتقادات فالمهم ألَّا يغفل عن إيجاد علاقة بين متغيّرات بحثه وتلك النظريَّات التي اعدَّها مصادر أساسية لتناول مشكلة بحثه.

ولأنَّ النظريات في مُجملها هي مصادر للفروض والقوانين، إذن: لو أهملت من قبل البحاث ألا يؤثِّر ذلك الإهمال أو التغاضي على بعض من أفكار الباحث في صوغ مفاهيم الظَّاهرة التي يتناولها بالبحث؟

ولأنَّ كل شيء يُبحث فيه، أو يُبحث من أجله لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ لذا أقول:

من أهميَّة النظريَّات أنَّها تُسهم في تنظيم أفكار الباحث وضبط مفاهيمه وتُخلِّصه من كلِّ ما من شأنه أن يتنافى مع المنطق.

الدِّراسات السَّابقة والاستطلاع ملاحظةً:

تعدُّ الملاحظة من الأدوات المهمّة في عمليَّات استطلاع الدِّراسات السَّابقة، فهي كما تمكِّن الباحث من الوقوف على متغيِّرات البحث تمكِّنه من كشف العلاقات، ومعرفة المضمون، وما يشير إليه؛ وهي تبيِّن مدى سعة تفكير الباحث، وإدراكه بمشكلة بحثه وعلاقتها بما سبق من جهود ذات علاقة؛ وذلك من خلال الربط بين المجرَّد والمحسوس والمدرك).

إذن: يجب ألَّا يغفل الباحث عن استقراء ما بين الأسطر، واستنباط المحمول في المضمون؛ ولهذا تعد الملاحظة الأداة الممكِّنة من التمييز فحاسة البصر (العين) لا تشاهد الكلمات المنطوقة مع أنَّها تشاهد المكتوبة منها، ولأنِّها تشاهدها تمكّن من استقراء مضامينها.

ولهذا فللملاحظة أهميّة منها:

. تمكّن من التمييز الموضوعي وتبيان المختلف، والمتَّفق، والشبيه، والمثيل، والمتطابق؛ ومن هنا تمكّن من المعرفة الواعية.

. إنها تُمكِّن الباحث من الاستقراء والاستنباط.

. تُمكِّن الباحث من معرفة ردود الفعال.

. إنَّها تفيد في دراسة ديناميكية الأفراد والجماعات والمجتمعات.

. تمكّن الباحث من متابعة التغيرات السلوكية ورصدها إيجابيًّا أو سلبيًّا.

. تُمكّن الباحث من الانتقال من المجرد إلى المشاهد عندما يكون عقله مبدعًا.

علاقة المشاهدة بالملاحظة:

ترتبط الملاحظة بالموضوع ولا تنفصل عنه؛ لأنَّها إذا انفصلت عنه تصبح غير علميَّة، وبدون معنى محدد لها؛ فإذا افترضنا أنَّ الموضوع هو: (مدى تمسّك سكان مدينة من المدن العربية بارتداء الزيّ الوطني)، فإنَّ ذلك يستوجب على الباحث ملاحظة ومشاهدة سكان المدينة في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة: وقت العمل، وأماكنه، وفي المدارس، والجامعات، والمناسبات الدينية، والأعياد الوطنية، والأعراس، وحفلات الختان والمآتم، وفي الشّوارع العامّة، وأيَّام العطلات، وأماكن الترفيه. فإذا ذهب الباحث إلى المصيف البلدي وشاهد المصطافين بدون زيّهم الوطني فهذا لا يعني عدم تمسّكهم به، ولكنّه يشير إلى أنَّ طبيعة المكان لا تستوجب ارتداء الزّي الوطني، بل لو شاهد أحد المواطنين يرتديه وهو مع المصطافين على الشاطئ فإنَّه يلاحظ إخلالًا بالذوق العام، وعدم احترام الزّي الوطني، وإذا شاهد أحد أساتذة الجامعة العرب أو المسلمين بشكل عام يرتدي ملابس البحر القصيرة وهو في الفصل الدراسي، أو المدرجات الجامعية؛ فإنَّه يلاحظ عدم احترام الأستاذ للمكان الجامعي ولطلبة الجامعة. وتختلف المشاهدة

عن الملاحظة في المثالين السَّابقين؛ ذلك لأنَّ الملابس تشاهد وتميّز، أمَّا الاحترام والتقيّد بالذّوق العام يلاحظ ولا يشاهد، وإذا ذهب الباحث المشاهد والملاحظ إلى مأتم وشاهد امرأة ترتدي ملابس احتفاليّة، يلاحظ أنَّها خارجة عن الموضوع؛ لأنَّها لم تتقيد بالظرف الزّماني والمكاني والموضوعي للزّي الذي ترتديه، ولم تحترم المناسبة وشعور الآخرين، وإذا شاهد بعض الأفراد يسبحون بالزّي الوطني بالمصيف العام يلاحظ أيضّا عدم احترامهم للزّي الوطني الذي يجب ألا تقدّم له الإهانات.

وعليه: فالملاحظة ليست هي المتوقّفة عند حدّ الصّور والأشكال كما هو حال المشاهدة، بل الملاحظة تتعدّاها إلى المكتوب وإلى ما يحمله من مضمون ومعنى، وما يحاول أن يخفيه أو يظهره المبحوث في تلك الدراسة التي أجراها سابقًا.

فهذا الأمر لا يتحقق بالمشاهدة التي تقتصر على رؤية الصورة والنظر إليها، بل بالملاحظة التي بها يتجاوز الباحث حدّ الوقوف عند مشاهداته للصّور والأشكال والسّلوك والحركة إلى ما يُخفى وراء كل منها، فالتناقض في الحديث، والتلعثم، والخجل، والتظاهر بالبراءة، والتظاهر بالخوف، والخوف الحقيقي، والمحبَّة، والتظاهر بالمحبّة، والانطواء، والاكتئاب، والتشاؤم، ومحاولة إنكار الانفعال، والغضب، وإظهار الفرح والمرح كلها لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها.

وعليه ليس كل ما يلاحظ يشاهد، ولكن كل ما يشاهد يمكن أن يلاحظ ما يُخفى وراءه، إنَّ قوَّة العلاقات بين أفراد الأسرة أو الأمَّة لا يمكن مشاهدتها، ولكن بالإمكان ملاحظتها، وممارسة الحرّيَّة لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الممارسين لها؛ ولذا مع أنَّ للحرية أساليب لممارستها في سلوك عن طريق اللجان والمؤتمرات والبرلمانات والجمعيات، والتنظيم الاقتصادي من خلال الملكية العامَّة والخاصَّة، وديناميكية الإنتاج التي يمكن مشاهدتها كتعبير عن الحرّيَّة؛ إلَّا أنَّ التعبير المعلن عنه من قبل الحكومات من خلال المشاهدة قد لا يُعبر عن مصادق، ومن خلال الملاحظة قد يثبت عكس ما يقال أو يُكتب، فعن طريقها قد تكون الحقيقة أنَّ الدولة التي تدعي ممارسة الحرّيَّة عن طريق جلسات المجالس والبرلمانات التي يمكن مشاهدتها بالنقل المباشر من خلال شاشات الإذاعة المرئية وشبكات الإنترنيت، يلاحظ أنَّها نظامٌ كبحيٌّ، أو سلفيٌّ، أو طبقيٌّ أو غيره.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصادق، وتكون المشاهدة خير دليلٍ وشاهدٍ عليها، هذا وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية، هي: تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقُّعات، وكيفيَّة تفادي المواقف، وكيفيَّة اختيار الأساليب، ومراعاة الظروف المناسبة، أي: إنَّها الحوار الذي يتمّ بين الإنسان كباحث وذاته، والمبادئ العلميَّة حول الموضوع والأهداف مع مراعاة مشكلة البحث

قيد والدراسة، وهكذا تولد المشاهدات والملاحظات بعضها من البعض، مما يجعل المشاهِد ينتقل من المشاهَد إلى الأسرار التي وراءه، والعلاقات المكوّنة لعناصره، قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[19]، إنَّه أمر لمشاهدة آياته في السَّماء؛ وهي النجوم والكواكب من خلال النّظر إليها، وبالمشاهدة يلاحظ أنَّ هناك علاقة، وأنَّ هناك قدرة وراءها، وأنَّها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلًا ونهارًا، وفي البر والبحر، وهذه مشاهدات تولَّدت من خلال الملاحظة والمشاهدة، وهكذا تتولّد المشاهدة من المشاهدة، وتتولد الملاحظة من الملاحظة، فمن مشاهدة الشّمس يشاهد الشّروق والغروب، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشّمال والجنوب، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلاحظ أنَّ من ورائها خالق، وهكذا تتولّد الفكرة من الفكرة لنلاحظ أو نشاهد ما يترتّب على الفكرة وتوليدها.

ولذا تعد الملاحظة والمشاهدة أحيانًا أداتين هامتين لوسيلة المقابلة؛ لأنَّه من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المبحوث وتصرُّفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو الأخصائي النفسي.

ولهذا في كثير من الأحيان تضع المشاهدة الباحث المشاهد في حالة شكّ، حيث خدعة الحواس، مما يجعل الشكّ في البعض

[19] يونس 101.

المسموع، والبعض المشاهد، ومن هنا فسلامة البصر وقوّته ليست واحدة، وبالتّالي يجب ألّا يسلّم الباحث بكل ما يكتب، بل عليه أن ينتبه ملاحظةً.

ولأنَّ المشاهدة ترتبط بالظّاهر سلوكًا وحركةً ومتحرّكًا، فلا ينبغي أن يعتمد عليها في إصدار الأحكام، وبخاصّة في أثناء إجراء المقابلات مع أصحاب الحالات الشاذة، أو المنحرفة، فعلى سبيل المثال: مشاهدة الأخصائي الاجتماعي أو النفسي للمبحوث وهو يبكي في أثناء المقابلة، فمن خلال الملاحظة يمكن إثبات أنَّ هذا البكاء ليس صادقًا، ولكنه لاستدرار عطف الأخصائي الاجتماعي أو النفسي؛ وذلك نتيجة الحيل الدِّفاعية للمبحوث وذكائه في التأثير على الباحث أو الدّارس لحالته وتمييع الموضوع.

كما أنَّ مشاهدة المتسوّلين وهم في ثياب رثة بالية قد تظهر للوهلة الأولى ظروفهم المعوزَّة، ولكن إذا أخضعوا للملاحظة، قد يكونون عكس ما يشاهد تمامًا؛ لأنَّهم اختاروا أقصر الطُّرق للعيش بدون مقابل، ومع ذلك: وأمّا السَّائل فلا تنهر، وهكذا تكون الملاحظة اختباريّة للمشاهدة، وتكون المقابلة اختبارية للملاحظة، فكل ما يلاحظه الباحث يمكن أن يتم اختبار مصداقيَّته من عدمها بالمقابلة، وتختلف الملاحظات والمشاهدات العلميَّة عن الملاحظة والمشاهدة العابرة التي تواجه الإنسان كل يوم، والتي قد تثيره في وقتها لاحتوائها عنصر المفاجأة، أو التي تعرَّف عليها في الماضي، وتتكرر من حين لآخر، مثل: مشاهدته السُّحب والأمطار، ومعرفته لها كما

هي مشاهدة، ولا يعرف العلاقة بين السُّحب ومكوِّناتها والقوَّة التي تذيبها فتسقط مطرًا، وأنَّه يشاهد البرق ولكنَّه لا يعرف القوة المولدة له، أما الملاحظات والمشاهدات العلميَّة المقصودة فهي تحدث وفق خطة، وانتباه واع، وتتبُّع دقيق، وتنطلق من موضوع وتحقق أهدافًا.

تعدُّ الملاحظة، والمشاهدة من الأدوات المهمّة في البحث العلمي عندما تكون قابلة للتحقّق، والملاحظة ليست هي المشاهدة مع أنَّهما يتدخلان كثيرًا؛ إلَّا أنَّ الحديث عن الملاحظة لا يعني تطابق مفهومها مع ما تعنيه المشاهدة، في الوقت الذي تشمل فيه الملاحظة على المشاهدة باعتبارها جزءًا منها، وهذا يجعل الحديث عن المشاهدة لا يفي بأغراض الملاحظة ومضامينها.

فالمشاهدة: هي الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته؛ لأنَّها مقتصرة على العين في مشاهدة الأشكال والأفعال، وتمكِّن الباحث من الوصف لما يشاهده.

والملاحظة: هي الرّبط بين المشاهد، والمسموع؛ لأنَّها الأداة المستعملة لحاستي السَّمع، والبصر والعقل في وقت واحد، فيلاحظ الإنسان بأذنيه كما يلاحظ بعينيه، ولكنَّه لا يستطيع المشاهدة بحاسة السَّمع.

الملاحظة تشمل على لحظة حدوث الشيء فيلاحظ في حينها (وقت حدوث الفعل)، وهذه قد تكون عن رؤية، وقد تكون عن استماع مباشر واع ومقصود، وقد تكون عن استطلاع للمكتوب،

وتتفق المشاهدة والملاحظة على أهميّة الحضور؛ لكي تتم عملية الرؤية المباشرة للمصدر ذو العلاقة بالموضوع.

والمشاهدة تحتوي على المعاينة بالعين للشّيء بالمشاهدة، وذلك عن طريق تفحُّصه ككل، وكجزء بنظرة نافذة، أي: إنَّ المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال، والصّور، والأجسام، وحركتها والتعرّف على مكوّناتها.

أمَّا الملاحظة فتُمكِّن الباحث من استقراء التَّاريخ، واستنباط العبر منه، فعن طريق مشاهدة الآثار والنقوش والزّخارف والوثائق، يتمّ التمكُّن ملاحظةً من التعرُّف على أحداث أو حضارات قد سادت وبادت. فمعركة أُحُدْ على سبيل المثال: قد دارت وانتهت من زمن المشاهدة، ولكنَّها باقية في زمن الملاحظة من خلال آثارها، وما كُتِب عنها؛ وكذلك أنَّ الرومان قد احتلوا ليبيا، وطُردوا منها بعد اقتتال عنيد وجهاد ثمين، وكل ذلك انتهى من زمن المشاهدة، ولكنَّه بقي لزمن الملاحظة، من خلال مشاهدة الآثار الرّومانية، وسجلات الجهاد الليبي، والوثائق الدَّالة على ذلك؛ ولهذا فالملاحظة أداة مهمّة؛ لأنَّها تُمكِّن الباحث من التعرّف على المعلومات الظّاهرة، واستنباط ما يخفى أحيانًا من خلال قدرة الباحث على ربط العلاقات بين المتغيرّات، والتناقضات حول القضايا المطروحة للبحث والدراسة.

وتستهدف الملاحظة معرفة الموضوع، وعناصره مما يجعل الملاحظة تمكن الباحث من المقارنة والتفسير، وفي هذه الحالة تختلف

عن المشاهدة التي تشبه آلة التصوير والنسخ؛ لأنَّها تصوِّر أو تنسخ المشاهدة فقط، مما يجعلنا نقول: إنَّ صورة الشيء لا يمكن أن تكون الشيء ذاته، فإنا أختلف عن صورتي، فصورتي من ورق، وأنا من صلصال، ويرتبط نجاح وفشل الباحث الملاحظ، أو المشاهد بقدراته واستعداداته ومهارته، وخبراته، وسلامة حواسه، فكلَّما كان الباحث أكثر قدرة على الانتباه والفطنة كانت ملاحظاته ومشاهداته ناجحة.

والملاحظة تفسيريَّة إلى جانب كونها وصفية؛ لأنَّها تعتمد على الحسّ والعقل، وتتعلّق بالظاهر، والكامن.

أمَّا المشاهدة فهي أداة استطلاعية، وتقتصر على الوصف، أي: إنَّ المشاهدة تصف السلوك، والملاحظة تصف ما يترتّب عليه من ردود أفعال أو افتعالات وانفعالات، وهي كذلك تُفسِّر بنظرة اختباريّة فاحصة، وتصفه بوعي.

ولذا فالملاحظة والمشاهدة أداتان هامتان لوسيلة المقابلة أي: من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المبحوث وتصرفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل الباحث.

وللمشاهدة أهميَّة منها:

. بها يتمكّن الباحث من الوقوف على المشاهد حقيقة مباشرة.

. تُمكِّن من تفحُّص المشاهد، وإخضاعه للتجربة والقياس.

. تُمكن الباحث من تقويم سلوك المبحوثين.

. تمكِّن الباحث من أن يكون باحثًا مشاركًا.

. تُمكِّن الباحث من الانتقال إلى أن يصبح ملاحظًا لِما شاهد من سلوك أو أعمال أو صورٍ وأشكالٍ، أي: تنقله من المشاهد إلى المجرّد، قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[20]، أي: لا ينبغي الوقوف عند حد النظر إلى الإبل أو السماء أو الجبال أو الأرض، بل ينبغي أن يتعداه عقل الإنسان إلى معرفة الكيفيَّة التي بها خلقت الإبل، ورفعت السَّماء، ونُصبت الجبال، وبُسطت الأرض.

ولأنَّها الملاحظة فلها خطوات منها:

أ – اختيار الموضوع وتحديده وفق أهداف واضحة ومحدَّدة؛ لأنَّ نقطة الانطلاق للملاحظة، أو المشاهدة هي أهميَّة الموضوع الذي يتمّ اختياره، فبدون موضوع لا يمكن أن تكون الملاحظة هادفة وجادَّة، ومن ثمَّ فالموضوع هو الإطار العام الذي تتبلور فيه الأفكار، وتستنبط منه الفروض وتتمركز فيه متغيّرات مشكلة البحث، مما يجعل الملاحظة، أو المشاهدة مترسِّخة في الموضوع، ومنطلقة منه، ومثيرة له.

ب – تحديد وحدة الاهتمام: سواء أكان فردًا أم مؤسّسةً، أم مزرعةً، أم مصنعًا، أم غيره، ولكن لا يتم تحديد وحدة الاهتمام إلَّا

[20] الغاشية 17 . 21.

بعد تحديد المجتمع الذي أخذت منه وحدة الاهتمام، وإذا كانت وحدة الاهتمام فردًا فينبغي أن يحدد إن كان ذكرًا، أم أنثى، صغيرًا أم كبيرًا، ثم تحديد صفاته، هل هو مدرس أم مدرسة؟ وما علاقة الصفة المستهدفة بالملاحظة والمشاهدة بنوع المهنة أو الحرفة؟

وقد تكون وحدة الاهتمام الاثنين الذكر والأنثى، أو الذكرين أو الأنثيين، أو الطرفين، أو الدولتين، وقد تكون وحدة الاهتمام حالة زواج، أو طلاق، أو قضية دينية، أو قومية، وقد تكون وحدة الاهتمام دورًا، مثل: دور الزّوجة، أو دور الزّوج، أو دور المعلّم والتلميذ، مما يجعل الباحث يهتم بمشاهدة وملاحظة السُّلوك والفعل للاثنين المشتركين في الموضوع، مع مراعاة متغيّرات اللغة، والدّين، والجنسيّة، والمهنة، واللون، والظّرف لكلا الطّرفين. وقد تكون وحدة الاهتمام جماعة، وقد تكون نشاطًا فنيًّا، أو رياضيًّا، أو مسرحيًّا، أو أدبيًّا، أو ثقافيًّا، فمن خلال ممارسة الجماعة لهذه المناشط يمكن ملاحظة أفعالها، وسلوكيّاتها، والأثر المتبادل بينها، وقد تكون وحدة الاهتمام مجتمعًا محليًّا، أو قرية، أو مدينة عندما يستهدف الباحث ملاحظة ومشاهدة الأنساق الاجتماعية، واتجاهات المجتمع واهتماماته، وتضامنه في العمل، وفي المناسبات العامّة، وفي البناء والإعمار.

ت – تحديد الظرف المناسب لإجراء الملاحظة والمشاهدة: ولأنَّ الموضوع يتأثَّر ويؤثّر في الظّرف الزّماني والمكاني؛ لذا ينبغي على الباحث إجراء الملاحظة، والمقابلة في الظروف الطبيعيَّة لها؛ لكي يتحصّل على معلومات غير متأثّرة بظروف خارجيّة، فإذا أراد مشاهدة

أو ملاحظة دور المدرس في الفصل، فلا ينبغي أن يأتي للفصل في وقت إجراء الاختبارات للطلبة، أو في أثناء معاناة المدرس من مرض زكام حاد، وإذا أراد أن يلاحظ درجة السّمو التي تحدث للفنان عند انسجامه مع أنغام الموسيقى، لا ينبغي أن يتخذ مكانًا مزدحمًا، فإن اتخذه يجد نفسه جالساً في وسط من الضوضاء والتشويش الذين لا يمكّناه من المشاهدة والملاحظة الموضوعية.

ث – تحديد نوع العلاقة المناسبة للموضوع: قد تكون العلاقة بين الباحث والمبحوثين علاقة ثِقةٍ تطمئن فيها الجماعة، أو الفرد للباحث، وتتقبّله وتحترمه، وتمكِّنه من الحصول على المعلومات المستهدفة بالبحث، وقد ترتقي العلاقة بين الباحث والمبحوث إلى درجة الصداقة التي لا تخل بالمبادئ المهينة للبحث العلمي، وقد يفضِّل الباحث ألَّا ترقي العلاقة إلى درجة الصّداقة حتى لا تؤثّر على الموضوع، مما يجعله ملاحظًا ومشاهدًا عن بعد، وقد تكون العلاقة رسميَّة، وهكذا كل شيءٍ يتحدد موضوعيًّا.

ج – تحديد كيفية التسجيل والأسلوب: إنَّ الملاحظة العلميَّة دقيقة وكثيرة ومترتبة على بعضها بعضًا مما يستوجب تسجيلها حتى لا تضيع بدون جدوى، غير أن التسجيل مسألة فنية من حيث التقنية، ومن حيث الأسلوب، فقد يستوجب الموضوع أن يكون التسجيل في أثناء زمن حدوث الفعل أو السُّلوك المشاهد والملاحظ، وقد يتطلّب الموضوع أن يكون التسجيل في نهاية المشاهدة والملاحظة، وقد يكون التسجيل بعلم المبحوث، وقد لا يكون بعلمه.

الميز والمآخذ على أسلوب التسجيل:

1- من ميز التسجيل في أثناء زمن الملاحظة أو المشاهدة أنَّ الباحث يسجل ملاحظاته في وقتها، وبالتالي لا ينسى شيئًا منها، ولن تضيع منه أيّة مشاهدة قد حصلت، وهي مهمّة جدًا في تفسير السُّلوك، والفعل الاجتماعي، وكذلك التسجيل يزوِّد الباحث بالمعلومات المهمّة للبحث.

2- ومن عيوب التسجيل: قد يجعل الباحث منغمسًا في تفسير ما يشاهده، أو الانهماك في التسجيل المطوَّل، مما يجعله غافلًا عن بعض المشاهدات والملاحظات التي قد وقعت في أثناء التسجيل، وقد لا تتكرر وهي مهمّة أيضًا.

ومن العيوب قد يتحّسس المبحوث من التسجيل ويتخوّف من نتائجه وبالتالي قد يمتنع عن ممارسة بعض الأفعال أو السُّلوكيات، أو قد يتصنَّع سلوكًا ليس من طبيعته لأجل أن يجرَّ الباحث خارجًا عن الموضوع ومثار اهتمامه، وكذلك قد يتوقّع أنَّ الباحث متجسس عليه فتهتز الثّقة بينهما.

استطلاع الدِّراسات السَّابقة مجادلةً:

التجادل لا يكون إلّا عن عزيمة وإصرار؛ لكونه لا يكون إلّا عن قناعة بالموضوع أو القضية المتجادل بشأنها، وهو لا يكون إلّا بامتلاك الحُجج ذات المصادق؛ ممّا يجعل وراء كلّ حُجّة حُجج أعظم.

والتّجادل حُجّة منبع الفكر المستوعب للغير (هم كما هم) بهدف أخذهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه وعيا ودراية ومعرفة ومكانة. ومع أنَّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله، ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم: (آدم)، ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه؛ ولذلك:

يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة، وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛

فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل ألَّا تظل تائها عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك، وأجل من تربطك به علاقات.

فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُّقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المحاجّة تطوّرا وارتقاء فيها من المجادلة ما فيها؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[21]، أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المحاجّة والمجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المحاجّة مع المختلفين

[21] العنكبوت 46.

من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المحاجّة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء، ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى

يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء، وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[22]، فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهيم لم يخف علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[23].

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا؛ ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين

---

[22] مريم 42 . 45.

[23] يونس 99.

لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[24]، فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا؛ أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتلته، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[25]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[26].

---

[24] البقرة 250.

[25] البقرة 258.

[26] يوسف 26.

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات؛ ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض، فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرًا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفزّ أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ومن ثمّ؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين، فعليهم به دون استرخاء، ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطرون إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة؛ فيصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

وعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال؛ فالجدل وما فيه من شدّة يعدّ هو

منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها، ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما يتميّز غيره عنه، فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[27]؛ فما أعظم هذه الآية: (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين: (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: إنّهم

[27] هود 118، 119.

خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة؛ لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا، فليحكم.

ومع أنَّ الجدال حُجّة تسنده الحقائق، ولكن عبر العصور لم تكن الحجّة هي الحجّة؛ فهناك من يعتقد أنّ تفسيره للمعلومة هو الحقيقة في الوقت الذي لا يميّز فيه صاحبها بين الحقيقة كونها معلومة أو نتيجة، وبين ما يتراءى له تفسيرا ليس إلّا؛ ففي تلك الأزمنة الأسطوريّة كانت الثّقافة شفويّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير فهي على الدّونية، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

إنّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي

ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصا نلاحظ وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا، حيث انعدام وجود الحجّة دليلا شاهدا بين أيدي النّاس.

ففي ذلك الزّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف، حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنّه الدّليل والحجّة، ومن هنا، قد يأخذ البعض بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرًا.

وفي المقابل تفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي (مقدمات ونتائج صادقة)، وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها، فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر؛ ولهذا؛ فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمّا النتائج فتفسّر؛ ولذا؛ فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي

الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيّة مع تقديم الحجج، وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعية، أو في المعامل والمختبرات، ولهذا؛ فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض، ومن هنا، فالحجج قابلة للقياس الذي يزيل الشكّ عنها.

طرق استطلاع الدِّراسات السَّابقة

طريقة التقصّي التَّاريخي:

طريقة التقصّي التاريخي تُمكِّن الباحث من تنظيم خطوات بحثه وفقًا للزّمن والموضوع، وهي الطريقة التي بها تُجمَّع وتُستقرأ المعلومة العلميَّة تأصيلًا مع مراعاة انتظام المعلومات وفق متغيِّراتها الموضوعيَّة والمكانيَّة والزمنيَّة أحداثًا وعِبرًا وقِصصًا مع مراعاة الخصوصيَّات الثقافيَّة والدينيَّة والعرفيَّة والمعرفيَّة التي بها تتميَّز كلّ هويَّة من الهويَّات الاجتماعيَّة.

ولذا فالباحث المتبع لطريقة التقصّي التاريخي يستهدف المعلومات من مصادرها الموثوقة سواءٌ أكانت بشريَّة أم وثائقيَّة ليستقرأ بها ظاهرة أو حالة من الحالات الفرديَّة أو الجماعيَّة أو المجتمعيَّة، أو أيِّ إشكاليَّة أو مشكلة تستوجب البحث تتبعًا بتتبع الظّروف والمتغيِّرات التي ظهرت فأثرت على الحالة.

ولأنَّ موضوع هذه الطريقة يكمن في التَّاريخ الواسع، فإنَّ تتبُّع الباحث لموضوع دراسة سابقة يستوجب تقصيًا متَّصلًا للمشكلة أو الموضوع، حتى وإن انفصلت حلقات التماسك عبر الزَّمن.

فهذه الطريقة لا تقتصر على دراسة علم التَّاريخ، بل بها تُستقرى العلوم في غير منعزلٍ عن مراحل نشأتها، أو تكوينها وتطوُّرها عبر التَّاريخ؛ وذلك لمعرفة أثر كل متغيّر من المتغيّرات التي أثّرت فيها تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر.

ولأنَّ لكلّ شيء تاريخ زماني ومكاني، ولكلِّ ظاهرة ومشكلة تاريخ؛ فلا ينبغي أن يُغفل عن البحث في تاريخه الذي به تأثَّر وأثَّر، ومن هنا وجب على الباحث تقصّي خطوات الدّراسات السَّابقة التي أخضعها للدراسة وفقًا لمتغير الزّمن والمكان، والخصوصيّة الدينيَّة، والثقافيَّة، والعلميَّة.

ولهذا تعتمد الطريقة التَّاريخية في تقصيها للمعلومة على الآتي:

. موضوع أو مشكلة الدِّراسة.

. الأدلة التي تُثبتُ أو تُبطل ما يتعلق بالظاهرة، أو الموضوع، أو مشكلة البحث.

. المصادر التي منها تستمدّ المعلومات، أو تُستقرأ وتستنبط.

. الأدوات التي تم استخدامها لجمع المعلومات من مصادرها أو مكامنها.

وهذه الطريقة لا تتطلَّب من الباحث الاعتماد على السرد والنّقل، بل على التفحُّص الدّقيق، والقياس المعتمد على قوانين اجتماعيَّة أو طبيعيَّة.

ولهذا فالبحث في أيِّ ظاهرة، أو مشكلة في العلوم الطبيعيَّة والاجتماعيَّة والإنسانيَّة لا ينبغي أن يكون منعزلًا عن تاريخها.

ولأنَّ لكل ظاهرة أو موضوع، أو مشكلة تاريخًا، وفي كلّ العلوم إذن: لا بدَّ من معرفة عللها وأسبابها أوَّلًا بأوَّل، مع مراعاة انتظام الزّمن وفقًا للمتغيرات التي أثَّرت سلبًا أو إيجابًا على الظاهرة أو المشكلة البحثيّة؛ وذلك من خلال التتبُّع الواعي المتمعّن في المعلومة ومتغيِّراتها المتداخلة والمستقلة والتّابعة والدخيلة.

ولأنَّ طريقة التقصّي التاريخي مستمدَّة من ميادين التّاريخ الواسعة فهي سميت بهذه التسمية، وهي الطريقة التي تعتمد المعلومات من مصادرها بوسائل وتقنيات دائمًا في حالة تطوُّر، وهكذا استمدت الطريقة التجريبية من التجربة التي تُعد الميدان الواسع للبحوث العلميَّة وبخاصة في العلوم الطبيعيَّة والتجريبيَّة، واستمدت الطريقة المسحيَّة التي تميَّزت بدراسة المجتمع، أو العينات المأخوذة منه، كما استمدت طريقة دراسة الحالة من ميادين الحالات المستهدفة بالبحث والدراسة.

وعليه:

إذا أردنا معرفة الأسباب والعلل لأيِّ موضوع، أو ظاهرة ينبغي معرفة التَّاريخ؛ لأنَّ في التَّاريخ تكمن الأسباب، وفي الأسباب

تكمن النتائج، وفي النتائج تكمن الحلول والمعالجات الموضوعية التي تجعل للتاريخ عبرة.

ولهذا لم يكن الغرض من اتباع طريقة التقصّي التاريخي سرد المواقف، أو تكرارها من باحث إلى آخر، أو تراكم البحوث والمعلومات وحفظها، وحفظ القصص والروايات، بل الهدف هو التعرف عليها وتفحُّص عبرها، وتبيانها للآخرين، واستخلاص القوانين الاجتماعية، وآليات حركة المجتمع والطبيعة، والتغيّرات التي طرأت أو أدخلت عليها وتأثرت بها أو أثرت فيها، والأخطاء التي وقعت، والمعالجات التي تمت بسلام، والعلوم التي أبدعت وأثرت، ومن هنا تستمد العبر ويؤخذ بما يوعظ.

الطريقة المسحيَّة:

الطريقة المسحيَّة تمكّن الباحث المتقصّي للمعلومة من التعرُّف على المحتوى العام للدراسة والبحث، أي: تمكّنه من الوقوف على المعلومة الواسعة (الشاملة) وتترك له حرّيَّة الانتقاء الموضوعي وفقًا لما يتعلَّق بمشكلة بحثه التي أوجبت عليه استطلاع الدّراسات السَّابقة؛ كونها ذات علاقة وأهميَّة.

إنَّها الطريقة العلميَّة الممكِّنة من اكتشاف العلاقات الناتجة عن تداخل عدد من المتغيرات التي تؤثّر سلبيًّا أو إيجابيًّا على الظاهرة؛ مما يستوجب تقصّي الحقائق من خلال مسح شامل للدراسات ذات العلاقة، ووفقًا لموضوعيّة اختيار وتحديد عدد الدِّراسات اللازمة

للاستطلاع العلمي بحثًا؛ وهذا لا يعني أنْ يستطلع الباحث كلّ الدّراسات السَّابقة، بل يعني وجوب أخذ عيّنة منها، ولكنَّها لا تمثلها؛ انطلاقًا من أنَّ العيّنة لا تمثل إلَّا نفسها.

ولهذا فالمسح البحثي يُمكِّن من التعرُّف على علل الظّاهرة، أو علل موضوع البحث التي بها تكتمل المعلومات، ويتم التعرف عليها، وكشف المتغيرات المكوِّنة لعلاقاتها مع غيرها من الدِّراسات السَّابقة والدّراسات اللاحقة من بعدها، ومن هنا يستطيع الباحث من المقارنة وإظهار ما يفيد.

وعليه:

فإنَّ اتباع الباحث لخطوات الطريقة المسحيَّة يُمكِّنه من التتبُّع الموضوعي للعلل والأسباب التي أوجدت المشكلة، أو الظاهرة التي أخضعت للبحث سابقًا، كما يمكِّنه من التعرّف على الصِّفات الظاّهرة في الزَّمن الحاضر، من خلال التعبير عنها وفقًا للمعلومات المجمَّعة والمحللة والتي مكَّنت الباحث السَّابق من الوصول إلى نتائج وتوصيات أصبحت بين يدي الباحث اللاحق خاضعة للتقييم والتقويم العلمي موضوعيًّا.

ولهذا ترسم طريقة المسح الموضوعي خطوات علميَّة بها تُجمَّع المعلومات وفق خطّة تراعى فيها الأهداف، والفروض المصاغة، وتحلل حسب معطياتها العلميَّة بهدف الوصول إلى نتائج تمكّن من الإصلاح أو تحقّق حلًّا وعلاجًا.

ولأنَّ البحث في العلوم الاجتماعيَّة ليس هينًا؛ كوننا نتعامل مع بشر يقعون تحت ضغوط الحاجات المتطوِّرة، وتحت ضغوط النفس وأوجاعها وآلامها، فاستخلاص المعلومة منهم ليس سهلًا؛ فالإنسان ليس من السّهل أن يظهر لك كلّ ما في وجدانه من خفايا، أي: ليس من السّهل علينا كباحثين أن نكشف أسرار آلامه وأوجاعه، وبالتّالي فمن المهم أن تكون الدّراسات السَّابقة ميسّرة للدراسة دون أحكام مسبقة.

ولهذا فمن الأهميَّة أن تخضع البحوث السَّابقة إلى البحث والدراسة؛ فهي مهمّة لأمورٍ، منها:

. الأمر الأوَّل: إنَّها مهمّة لمن أجراها سابقًا من حيث التأكيد على تلك النتائج الموجبة التي توصَّل إليها، أو في حالة ما إذا تمّ اكتشاف قصورها بهدف تجاوزه وإصحاح ما قد وقع فيه الباحث سابقًا من أخطاء بحثيّة.

الأمر الثاني: إنَّها مهمّة للبحَّاث اللاحقين الذين يمرون بحيرة تجعلهم منهمكين فيها وكأنَّ كلّ الطرق قد سُدّت، ومن هنا تصبح العودة إلى تلك الدّراسات ذات أهميّة تنقذ البعض مما هم فيه من حيرة.

الأمر الثالث: إنَّها مهمّة للبحث العلمي الذي دائمًا عجلته تدور إلى الأمام تقدُّمًا.

الأمر الرّابع: إنَّها مهمّم للمجتمع الإنسان الذي هو الآخر دائمًا في حاجة لعلم ييسِّر له حركته وسكونه.

الطريقة التحليليَّة للمضمون:

content analysis

المضمون هو مكمن الشيء ومركز ظهوره واختفائه، وهو الذي يكمن في الكلمة والفكرة والجملة التي ينقلها المحتوى، وبتكرارات الفكرة أو القيمة أو الكلمة يتم التأكُّد من الاتجاهات الفكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتربويّة التي يحتويها النصّ ويتمركز عليها المضمون سواءٌ أكانت ذات اتجاهات سلبيّة أم إيجابيّة، والمضمون الذي يحمله النصّ هو المحتوى العام للدراسة السَّابقة.

ولذا ينبغي أن نفرّق بين مفهوم المضمون ومفهوم المحتوى؛ فالمضمون كما سبق تحديده، هو الذي يتوحّد في الكلمة والجملة الناقلة له مع الفكرة كما توحَّد في رسالة رسول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام إلى هرقل ملك الرُّوم: (اسلم تسلم) هذه الرِّسالة محتوى متكوّن من كلمتين، وفي الكلمتين يكمن المضمون، وفيهما تُحمل الفكرة وتتجلَّى، ولكن ليس دائمًا يحدث مثل هذا الأمر، بل في مُعظم الأحوال ينتشر المحتوى في خطابه أو نصّه الذي فيه يكمن المضمون كما يكمن الزبد في اللبن، فالمضمون يُدرك ويُستنبط ويُستقرأ استقراءًا حتى يُستدلَّ عليه معرفةً، أمَّا المحتوى غير ذلك.

فالمحتوى: content: هو ما يشتمل عليه النصّ أو الخطاب أو الكتاب أو الموضوع، فمحتوى الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، ومحتوى الدراسة أو الخطاب أو النصّ من أوَّل كلمة قيلت أو كُتبت إلى آخر كلمة قيلت أو كتبت، مما يجعل تحليل المحتوى يتمركز على التكرارات اللفظية للكلمة أو الجملة أو الفكرة أو الموضوع.

والمحتوى غير المضمون؛ فالمضمون هو ما يتمركز عليه المحتوى من فكرة عامَّة، أو أفكار متجزئة، والمحتوى هو ما يمتد بالكلمة من خطاب أو نصّ حتى يشاهد ويُلاحظ ويقرأ؛ ولذا فالمحتوى بلا مضمون كالحديث بدون معنى والتنظير بدون دلالة.

وعليه: يتكون مصطلح تحليل المضمون من جزأين:

. الأوَّل التحليل.

. الثاني المضمون.

وكلمة تحليل تعنى تفحُّص عن وعي وانتباه يُمَيِّز بين الدّقيق والأدق منه، وهذا ما يجب أن يُتَّبع في تفحّص الدراسات السَّابقة، والمضمون هو المكمن الدلالي الذي تتمركز عليه الفكرة، أو القيمة، أو النص والخطاب وما يحمله من معنى للمفاهيم التي يتمّ عرضها أو قولها أو كتابتها؛ ولذلك فالتحليل العلمي عندما يستهدف الدَّلالة على وحدة الموضوع، وبؤرة اهتمامه يكون منصبًّا على المضمون، ويتمّ التعرُّف على المضامين من خلال التعرّف على محيطها الذي استوعبها، ومن خلال الإطار العام الذي يحتويها، والذي يميّزها عن غيرها من

المواضيع، وتعد المواضيع ذات أهمية إذا كانت لها مضامين، ويعد المضمون هو لب المحتوى، وبؤرة اهتمامه، وعلّة وجوده؛ ولهذا ينبغي أن يحلّل المضمون في إطار محتواه.

في بعض الأحيان يعتمد تحليل المضمون على المعلومات الجاهزة، كالوثائق، والمطبوعات، والخطب، والأحاديث، وفي البعض الآخر يتجاوز ذلك لدراسة الشخصية التي تُمكِّنه من ربط الظاهر بالباطن (القول بالفعل أو السلوك والعمل) وكذلك ليربط الثابت بالمتحرك، وهذا الأسلوب هو الذي يجعله طريقة تحليليَّة تكشف الجديد وتعمل على تطويره؛ لأنّ اقتصار البعض له على تحليل المعلومات الجاهزة دون متابعتها وربطها بالفعل والسُّلوك، هو الذي يجعل طريقة تحليل المضمون طريقة استهلاكيَّة.

فطريقة تحليل المضمون لا تسلِّم بالمعلومة هكذا وكأنَّها مطلقة، بل تخضعها للاختبار والقياس والتجريب من أجل التأكد من أنّها على الصّواب أو أنَّها على غير ذلك؛ ولذلك فاختبار المضمون يتعلّق بربط المشاهد بالمجرَّد (ربط الفعل بالمضمون)؛ لكي يتمّ الوقوف عند المصادق والحجج المثبتة نظرية أم قانونًا؛ لأنَّ القول الذي يحمل المضمون فيما يقال قد لا يكون له مصادق، وبالتالي يكون في حالة الشكّ الفاقد إلى البراهين التي تجعله حقيقة بالإثبات.

إنَّ الاعتماد على المضمون المكتوب أو المنطوق قد يؤدّي إلى نتائج كاذبة؛ وذلك لتناوله قضايا كاذبة، فالكاتب على سبيل

المثال عندما يكتب أو يتحدث عن الإنسان بقوله: إنّه لا يحمل في قلبه إلَّا حبيبا واحدًا، ثم نلاحظ أنَّ هذا الكاتب له أكثر من حبيب، فماذا يعنى قوله السَّابق؟ إنّه يعنى تناقض بين المضمون الذي احتواه النصّ، وبين الفعل، ولكن كيف نعرف ذلك؟ نعرفه بمقارنة القول مع الفعل والسُّلوك.

وإذا تساءل أحد:

أيّهما أفضل، القول الذي يؤَكِّد على حبيب واحد؟ أم الفعل الذي يخالف ذلك؟

بدون شكّ الفعل الذي يخالف ذلك أفضل؛ لأنَّ قلب الإنسان لا يمكن أن يقتصر على حبيب واحد، فهو يحب الله، ويحب الأب والأم، والأخت، والأخ، والزوجة، والأبناء، والأقارب، والجيران، والأمّة التي ينتمي إليها ديانةً أو عرقًا، والوطن الذي يعيش فيه، والجيران، والأصدقاء الذين تربطه بهم مودّة، ويُحِب الدين الذي ارتضاه للعبادة، ولكن للحبِّ درجات، ولا يلتقي اثنان في درجة واحدة مهما قربا، فمكانة الله في القلب بالنسبة إلى المسلم لا يزاحمه فيها أحد على الإطلاق، وهكذا مكانة الوطن، ومكانة الأب والأم، والابن والأخ والزوجة وإلى النهاية، لا يمكن أن يزاحم أحد آخر، وبناء على ذلك يعد مضمون النصّ لا مصادق له، وللفعل مصادق.

ينبغي على الباحث في أثناء إقدامه على تحليل المضمون أن يحدِّد وحدة الاهتمام البحثي، هل هي الأسرة؟ أم أنّها العائلة؟ أن أنّها العشيرة؟ أم أنّها القبيلة؟

. أم أنَّ وحدة الاهتمام هي المدرسة التي تُحدّد من مجموع المدارس المستهدفة بالبحث أو من العيّنة التي أخذت منها؟

. أم أنّ الوحدة التي سيوليها الباحث بالمعاملة والاهتمام البحثي هي المزرعة من مجموع المزارع المستهدفة هي الأخرى بالبحث العلمي؟

. أم أنّها الفكرة التي ظهرت في النصوص التي تحتويها الوثيقة أو الخطاب؟

. أم أنّها القيمة التي يحتويها العرف والفضائل الخيّرة؟

. أم أنّها معسكرٌ أو مختبرٌ أو معملٌ بحثيٌّ؟

. أم أنّها شخصية وطنيّة من مجموع الشخصيات الوطنيّة المستهدفة بالبحث وفقًا لقواعد وخطوات البحث العلمي في طريقة تحليل المضمون؟

وقد تكون وحدة الاهتمام جريدة أو مجلة، أو وثيقة، أو كتاب، وقد تكون حديث أو خطاب، أو مذكرات خاصَّة، أو عامَّة، أو أنَّها دراسات سابقة.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (136) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93. إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99. أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعية (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 –كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (136) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.